الفصل الخامس

أسباب الرشد وموانعه

"إننا أوجدنا حلولا لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا حلولا لعصركم"

(الشيخ عدون مخاطبا الجيل الجديد، بعدما تجاوز المائة من عمره)

obeikandl.com

obeikandl.com

أسباب الرشد وموانعه

مدخل

إذا كان الرشد بمدلوله المعرفي يعني "**ذاتية اتباع الأسباب**"؛ فإنَّ هذه الأسباب التي تؤدِّي إلى الرشد الفرديّ والجماعيّ على السواء هي ذاتية، أمَّا الأسباب الخارجية فهي عارضة، لا تُلغَى مِن الحساب لكنَّها لا تغيّر من المعادَلة شيئا؛ ومن ثمّ كان لزاما لفهم "البراديم كولن" فهمًا حركيًّا، أن نتتبع أسباب الرشد، وموانع الرشد، في فكر الأستاذ أساسا، والخدمة تِباعا.

وإنَّ التأليف بين هذه الأسباب ليساعدنا على رسم خريطة شمولية غير مبتسَرة لجوانب الخدمة، وأبرز أعمدة تلكم الخريطة:

١. الجانب الإيماني القلبي.

٢. الجانب المعرفي العقلي.

٣. الجانب الدعوي الحضاري.

٤. الجانب الفني الجمالي.

فلكِّل جانب أسبابه وموانعه، لكن لن أعمد إلى ذكر السبب وعدمه في قائمة الأسباب، ثم إلى سلب السبب وإدراجه في قائمة الموانع، كأن أقول: الصبر من الأسباب، وعدم الصبر من الموانع؛ ذلك أنَّ هذا المسلك المنهجيَّ قد أسهب فيه الأصوليون في حديثهم عن "دليل الخطاب" أو ما يُعرف بـ"مفهوم المخالفة"، وعرَّفه القرافي بأنه "إثبات نقيض حكم المنطوق

به للمسكوت عنه"(شرح تنقيح الفصول، ص٥٥)، **ثم إنهم أجمعوا على أنَّه حجَّة**، يقول الدريني: "أجمع الأصوليون ممن يقام لآرائهم وزن أنَّ مفهوم المخالفة في أقوال الناس، وكذلك في مؤلفات العلماء، حجَّة"(المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي، ص٣٩٥)، مِن هنا كان السبب من أسباب الرشد عند إيراده دالاًّ على أنَّ نقيضه مانع من موانع الرشد؛ فلا سبيل للإطالة والإطناب.

وإني سأعمُد إلى مؤلَّفات الأستاذ متتبعا ما عدَّه هو سببا، وما عدَّه مانعا، سواء بالتصريح والعبارة، أم بالتلميح والإشارة؛ ذلك أنَّ الأستاذ كان بمثابة المهندس الراسم للخريطة، والقائدِ الداعي إلى اتخاذ المسالك في الواقع، والمشير إلى الطرق المؤدِّية، حتى ولو كانت وعرةً، والمحذِّر من المهالك والمفاوز، حتى وإن بدت يسيرة سهلة.

وسأعرض ما توصَّلتُ إليه، محللا بعض جوانبه، بغرض اكتشاف خطِّ السير في تجربة كولن، وإدراك تلك المسافة التي تصل بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل، في مشروع حضاريٍّ هو بمثابة "تحوُّل في البراديم" (paradigm shift) من أزمة حضارية عالمية، بما فيها أزمة المسلمين بُعيد سقوط الدولة العثمانية، إلى بوادر للانفراج، قد لا تكون مكتملة المعالم بعدُ، لكنَّها مثل الفجر الصادق، ليس بعده إلاَّ: "حي على الصلاة، حي على الفلاح".

وأذكِّر -بعد معاينة ومعاشرة- أنَّ النماذج الكامنة التي اكتشفتُها خلال التنقيب في الأسباب والموانع، ليست مجرَّد عبارات أدبية منمَّقة لمتعة المطالعة؛ وإنما هي مدرَكات واعيةٌ فاعلة في فكر الأستاذ وحياته، ثم هي تمثُّلات حضارية في حركية الخدمة في جميع مجالات نشاطها: التربية والتعليم، الحوار، الإعلام، التجارة والصناعة... الخ.

وليست الأسباب ولا الموانع في نفس الدرجة من الأهمية والأولوية؛ فمنها ما هو ضروريٌّ، ومنها ما هو حاجيٌّ، ومنها ما هو تحسينيٌّ؛ ولذا لن أسرد كلَّ الأسباب، بنفس درجة الاهتمام، إلاَّ ما كان من قبيل الأولويات، معتبرا في ذلك فقه مراتب الأعمال، أو ما يعرف بفقه الأولويات.

الأسباب القلبية الإيمانية

أولا: الإخلاص

الإخلاص عصارة الدين وروحُه، فهو "التِّرْمُومَاتر" الذي نقيس به نسبة الارتباط بالله في كلِّ حركة وسكون، وهو -لذلك ولهذه المكانة العليَّة- أصعبُ وأدقُّ صفة من صفات القلوب، ذلك أنَّه لا يعبَّر عنه بلسان، فإن قال قائل: "أنا مخلص يقينا"، انتفى عنه الإخلاص، ولذا وجب أن يدعو الله: "اللّهمَّ اجعلني من المخلِصين"؛ ولا يمكن للبشر جميعِهم -ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا- أن يضعوا إنسانا تحت المجهِر، ثم يستخرجوا من قلبه نقطة الإخلاص وموطنَه، فهذا مما لا يدركه أحد إلاَّ الله سبحانه تعالى؛ إلاَّ أنَّ صاحب ذلك القلب المخلِص قد يجد أمارات وبشارات، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

وما أروع العلاقة التي بين الإخلاص والعمل، ذلك أنَّ العمل القليل مع الإخلاص لا يسمَّى قليلا، والعملَ الكثير بلا إخلاص لا يعدُّ عملا،[1]

---

١ في الإجابة على سؤال من "أسئلة العصر المحيرة"، تحت عنوان "هل تستطيع النية إنقاذ الإنسان؟"، يقول الأستاذ عن النية، وهي هنا مرادفة للإخلاص: "والنية مهمَّة أيضا من ناحية حسنات الإنسان وسيئاته. فهي من هذه الناحية إمَّا إكسير وشفاء له، وإمَّا طوفان عات يسلب كلَّ أعمال الإنسان ويجعله أثرا بعد عين. فكم من عمل صغير كحبَّة قمح تضاعف بالنية الصالحة فأصبح ألف سنبلة، أو قطرة انقلبت إلى نهر وسيل. وكم من عمل بضخامة الجبال بقي بسبب نية غير صالحة دون ثمرة، وعقيما" (ص٥٠).

يقول عليه السلام: "أخلص دينك لله يكفك القليل من العمل"، ويعلِّق الأستاذ على هذا الحديث بقوله: "فإن كان العمل جسدا فروحه الإخلاص، وإن كان العمل جناحا فجناحه الآخَر الإخلاص، فلا جسد بلا روح، ولا يوصَل إلى مكان بجناح واحد"(التلال الزمردية، ص١٠٦).

ولقد أورد فتح الله العديدَ من التعاريف للإخلاص، كلٌّ تعريف يتناوله مِن زاوية خاصَّة، أمَّا من زاوية الرشد، أي العلاقة بين الفكر والفعل، وبين القلب والعقل والحركة، فإنَّ أليق تعريف عثرت عليه، هو قوله: "الإخلاص في عبادة الفرد وطاعته، هو كفُّه عن كلِّ ما هو خارجٌ عن أمره تعالى وإرادته وإحسانه، حافظًا للأسرار التي بين العبد والمعبود... وقيامُه بأعماله على أساس عرضِها على الناقد البصير"(التلال، ص١٠٤).

وهنا بيت القصيد، إذ إنَّ المخلص كلَّما همَّ بعمل، مهما بدا صغيرا، عليه أوَّلا أن يستحضر الجهة التي يعمل لأجلها؛ فإن كان ذلك العمل لصديق، أو قريب، أو هيئة...أعدَّه بمقداره؛ وإن كان لملكٍ أو سلطان أو رئيس زيَّنه حسب قدره؛ وأمَّا إن كان مبتغيا به رضوان الله، مالك الملك، العالِم بخفايا الأمور، فالواجب الاعتناء به، وتقليبه يُمنة ويُسرة، حتى يضمن أنَّه صار خالصًا له وحده... كيف لا والآمر بالعمل هو الله، وواهب الأسباب هو الله، والهادي عبدَه للنتائج هو الله، والمتقبِّل هو الله، والمجازي هو الله... فهو هو، ابتداء وانتهاء... قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾(البينة:٥).

والإخلاص -لهذه الحيثيات- هو "وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوبَ الطاهرة، فهي وثيقة سحريةٌ تجعل القليل كثيرًا، والضحلَ عميقًا، والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة" (التلال، ص١٠٥)؛ ومِن ثم ليس للإخلاص

صفةٌ معيَّنة، أو طقس معيَّن، أو أداء معيَّن، أو شكل معيَّن، أو نوع من الذِّكر معيَّن؛ وإنما هو متروك للعبد، موكول به لخاصَّة خاصته، ولسريرة قلبه "سرٌّ بين العبد والمعبود، استودعه الله قلب من أحبَّه من عباده".

ومن أبرز خصائص الإخلاص أنه:

- تكامل بين القول والفعل.
- وتكامل بين الظاهر والباطن.
- وتكامل بين الخوف والرجاء.
- وتكامل بين المبدأ والمنتهى.

وبهذا يصدق على الإخلاص أنَّه نقطة الطاقة اللامتناهية، أو نقطة العزم (enercie) بلغة الفزياء، مَن اكتشفها تحكَّم في كلِّ حركة، مهما بدت معقَّدة، ووفّق لكلِّ إنجاز وعمل، مهما ظهر أنَّه مستحيل. وهل ما حقَّقه صفوة الخلق محمد ﷺ في زمن قصير، كان ممكنا في مئات السنين، لولا الإخلاص، ولولا ارتباطه بالله الفاعل المريد؟

فالإخلاص والنجاح في الدعوة متلازمان تلازم الماء والحياة، وتلازم النار والإحراق، وتلازم النور والإضاءة... أي تلازم السبب والنتيجة؛ فمتى وجد الإخلاص كان النجاح، وهذا -بتعبير الأستاذ كولن- هو "قانون إلهي" لا يتخلَّف أبدا؛ لكن قد يختلف الناس في تقديره وشكله وحجمه وأوانه؛ ذلك أنَّه مما استأثر الله تعالى بعلمه: "الأقوال والأحوال الخالية من الإخلاص لا يلطف الله سبحانه بها باليمن والبركة. أمَّا ما نشاهده من نجاحات في بعض أعمال غير المخلِصين أو شبه المخلصين، فهذا نابع من عدم وجودِ البديل، زيادةً على أنها عابرة، أو أنَّ تحقُّق مثل

هذه الأحوال أحياناً نابعٌ من عدم وجود مَن هو أفضل إخلاصاً في حينه، أو مِن عدم تمكُّن المخلِصين الصادقين من تكوين مركز جاذبية بعدُ. ومتى ما حان وقت انتهاء غير المخلِصين يَحكم عليهم القدر به. وقد جرى هذا القانون الإلهي منذ القدم إلى يومنا الحاضر؛ لذا لا يخدعنَّ المؤمنين وأهلَ الفراسة النجاحُ الجزئي والعابر لغير المخلِصين أو ناقصي الإخلاص"(طرق الإرشاد، ص١٢٨).

وليس أصدق من الاعتقاد الجازم في أنَّ الأسباب كلَّها بيد الله تعالى، وأنَّ مفاتيح الأمور جميعها بتدبيره سبحانه، وأنَّ القلوب بلا استثناء "بين إصبعين من أصابع الرحمن"؛ فإذا ما أتى امرءٌ فعلا وابتغى من ورائه ثمرة، فإنَّ الوقوع أو عدم الوقوع مرهون بإرادة الله وحده، فهو الذي ﴿يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾(إبراهيم:٢٧)، و﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾(يونس:٣)، و﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(يس:٨٣)، و﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(آل عمران:٤٧)؛ ولذا طمأن الله تعالى نبيَّه الكريم أنَّ الهداية وأمرَها ليست من اختصاص الإنسان، حتى وإن كان هذا الإنسانُ هو النبيُّ المكرَّم، محمَّد ﷺ، فخاطبه بقوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(القصص:٥٦).

يعلِّق فتح الله على هذه الآية بقوله: "لذا، فأصل المسألة هي الارتباط بالله الذي له مقاليد خزائن الغيب والحاضر، والهدايةُ خزينةٌ عظيمةٌ، فمفتاحها أيضاً بيده بلا شكٍّ. فالألزم إذاً للمرشد والمبلِّغ أن يلجأ إلى القدير الذي بيده مفاتيح كلِّ شيء في أثناء تبليغ شيء ما إلى المخاطب بإخلاص تام"(طرق الإرشاد، ص١٢٩).

ولا يجوز لأيِّ إنسان مهما كان، بلْه المؤمنَ والمرشد، أن ينسب الأعمال إلى ذاته وإلى نفسه، كأن يقول: "أنا الذي فعلتُ"، أو "مَن غيري يفعل كذا"،

obeikandi.com

أو "لولاي لما كان كذا وكذا"... ومن كان هذا اعتقاده حُشر مع قارون القائل: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، أو مع كافر الجنتين، الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه، و﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾(الكهف:٣٥)، بل مَن أتى الله بمثل هذا الفساد العقدي، حتى وإن لبس لَبُوس الأيمة والخطباء والورعين، فإنه يتحوَّل إلى فرعون صغير، يردِّد مع فرعون الكبير: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩).

ولقد نقد العديدُ من المفكِّرين حركاتٍ قامت ثم بادت، ولم تحقِّق المأمول، وأرجَع البعض منهم الأمرَ إلى أسباب ظاهرية مادية مباشرة، لكنَّهم غفلوا عن السبب الحقيقيّ والأساسيّ وهو "مدى قرب تلك الحركة من الله تعالى وبعدها عنه"، أي "مدى إخلاصها فيما تأتي وما تذر". ألله كان قيامها أم لغيره؟"

ومن تمام الإخلاص ربطُ القول بالفعل بإحكام والتزام؛ حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، فالصورة المثالية التي رسمها القرآن الكريم، هي أنَّ الإيمان لا يصحُّ إلاَّ بوحدة القول والعمل وتكاملهما. والمحافظةُ على هذا التكامل والتوازن "سرُّ كلِّ توفيق ونجاح ونصرة"(طرق الإرشاد، ص١٣٠)، وهو دليل على الإخلاص، ومدعاة للقبول بإذن الله تعالى.

وما الوارِثون الحقيقيون للأرض، وما أهلُ التمكين والخلافة، سوى أولئك المخلِصين المخلَصين، يقول كولن: "وأنبّه هنا مرَّة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيَون والذين يُحيُون (غيرهم)". ثم يواصل ويقول: "ولقد كرَّرنا مرارًا وتكرارًا أنَّ الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، وهم الذين نودع أرواحنا

وديعةً مأمونة عندهم... أولئك الذين لا يطلبون من الجماهير أن تتبعهم، ولكنَّ وجودهم نداءٌ جهوري وأيُّ نداء!.. فأينما كانوا، تهرع الجماهير إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب..."(صرح الروح، ص٨٨).

ثانيا: البكاء همًّا وهمَّة

أوَّل مرَّة استمعت فيها إلى صوت الأستاذ كولن كانت في "الأكاديميا" بحي "شملشا"، الجهة الأسيوية من استانبول؛ حيث عَرض علينا الإخوة الباحثون شريطا بالصوت والصورة (فيديو)، يشرح فيه الأستاذُ حديث الرسول ﷺ: "ليبلغنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يترك الله بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلاَّ أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل، عزًّا يُعزُّ الله به الإسلام وأهلَه، وذُلا يُذِلُّ الله به الكفر"(الهيثمي، مجمع الزوائد)؛ وأثناء كلامه، كان فتح الله يعتذر للرسول ﷺ عن تخاذلنا ونكوصنا في إبلاغ الدين هذا المبلغَ العالميَّ الكوني العظيم؛ وفجأة أجهش بالبكاء، فلم يتمالك، ولم يوقف دموعه المنهمرةَ على خديه ودِيانا...

وعلَّق أحد شباب الأكاديميا قائلا: "إنَّ الأستاذ هكذا دائما، مرهفُ الحسِّ بكَّاء!".

والحقُّ أنَّ "صفاء القلب"، و"رقَّة الروح"، و"رهافة الحسِّ"، و"سمو الذوق"... كلُّها ثمرات يانعة طيبة لبذور الحبِّ والعشق والشوق، وقد بُذرت في أرض المجاهدة والذكر والفكر.

وشتَّان بين البكاء على الأطلال، على إيقاع "قِفا نبكي..."، والبكاءِ الذي يَسقي الكون عطفا وريًّا، ويُحيل القلوبَ الصخورَ حبَّات للندى والنسائم، وزهورا عطرة ندية، تنشر الشذى، وتزرع الأنس والأمن.

البكاء الأوَّل قد يكون فطريًّا، ظاهريًّا، غير مكتَسب؛ أمَّا الثاني فهو

obeikandl.com

نتيجة جهاد ومجاهدة، وصبر ومصابرة، ورياضة روحية كبيرةٍ ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥)؛ حتى إنَّ فتح الله قد جرَّب هذا النهج، واعترف أنه وعرٌ، فقال: "نعم، إنَّ السير في مجاهدة الإنسان نفسَه لبلوغ هذه الذروة من صفاء القلب، ورقَّة الروح، شاقٌّ وعسير، ولكنَّ بلوغ الهدف في الذروة أيضا خطٌّ عظيم وسعادة كبرى"(طرق الإرشاد، ص١٧٤).

ودليل آخر أنَّ هذا المقام هو نتيجة تربية ومجاهدة للنفس، قوله في "ترانيم روح" في مقال بعنوان "عندما تنبض القلوب برقَّة": "والذين يغذُّون أرواحهم كلَّ يوم بمثل هذا الوصال، ومن الخيالات المتداعية المترافقة لجميع هذه الوصالات وللوصال الكبير، ومن أنواع الجمال المتدفّقة إلى مشاعرهم، ومن براعم الأمل النابتة في صلب عباداتهم، ومِن الأذواق الروحية التي يحصُلون عليها من المعاني الهادرة من القلوب والعيون المؤمنة، يرجعون لأنفسهم، وينغمرون مع هذه المعاني في صمت مهيب، حيث يَدَعون أنفسهم لأحلام الوصال الكبير الذي سيتحقق في ذلك العالم الآخر، ويتخيَّلون أنفسهم وكأنهم يسبحون في نهر ساحر، وأنهم أبحروا إلى ما فوق الزمان"(ص١٣٠). وهل هذه الحال إلاَّ حال الدهشة والحيرة والبكاء الشديد؟

وإنَّ الأستاذ ليعرف من نفسه أنَّه غالبا ما لا يتمالك، ولو حتى أمام الآلاف من المشاهدين لدروسه ومواعظه وتوجيهاته، فلا يُغالب ذلك، بل يستسلم له بعفوية وبلا تكلُّف، فلنستمع إليه وهو يُنشد في قصيدة شعرية جميلة عنوانها "بدا حاجب الأفق":

"على كاهلي الآن جبَلٌ عظيم يوشك أن يتزلزل،
وفي أملي يتلألأ الربيع...

وها كل عضوٍ مني يرتجف مثل أوراق الشجر،
كأنني الآن ميزان الألم:
في إحدى كفّتيه الخوف، وفي الأخرى مُطلق الرجاء..
وموجُ الأكدار يضرب شاطئ السرور والأفراح،
أحيانًا في غاية السرور أنا، وأحيانًا أجهش بالبكاء" (موقع حراء).

وهل كان فتح الله إلاّ وريثا لبديع الزمان، الذي ذُكَر عنه أنه في أحلك الظروف كان يُديم قراءة مجموعة الأحزاب (الأدعية) بمجلَّداتها الثلاثة، كالعاشق الولهان، فبشهادة طلاَّبه وجيرانه "كان أينما أقام يمضي لياليه في العبادة والأذكار، في أنين وبكاء. فكان يشقُّ ظلمات الليل وصمتها بصوته الحزين والملتاع، فيهيج قلوب السامعين ورقائقهم" (القلوب الضارعة، مقدمة).

وما أروع المعزوفة الموسيقية التي وشَّح بها فريد الأنصاري فصولَ روايته "عودة الفرسان"، والتي يصف فيها حال البكاء ورقَّة القلب عند الأستاذ كولن بأوجز عبارة. ويقول:

"فتح الله لديه سرٌّ ليس يبوح به.

فتح الله لديه سرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يُخبر به أحدا.

فتح الله يحمل في قلبه ما لا طاقة له به، ولذلك لم يزل يبكي، حتى احتار الدمع لمأتمه.

فتح الله وارث سرٍّ، لو ورثه الجبل العالي، لانهدَّ الصخرُ من أعلى قمَّته، ولخرَّت أركان قواعده رهَبا.

فتح الله فارسٌ ليس تلين عريكتُه، ولا تضعُف شكيمتُه. ولَصوته في الكرِّ أشدُّ من فرقعة الرعد! يقاتل في النهار حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خلا لأشجان الليل بكى" (ص١٣).

وإنَّ فتح الله نفسَه ليستعير من الشاعر محمد عاكف مقطوعة تعبِّر عن حقيقة البكاء عنده، مما جا ء فيها:

"أبكي وأنوح... ولكن لا أستطيع إثارة البكاء!
أحسُّ بالألم... ولكن لا أستطيع بث لواعجي
آه من قلبي الأخرس!... كم أشكو منه!"(المدخل، موقع فتح الله)

ولقد بلغت دلالة البكاء على رقَّة القلب وعلوِّ الهمة عند الأستاذ مبلغَها، حين نسج مقالا خاصًّا بعنوان "هذا موسم البكاء"، وبدأه بمقطوعة فريدة، جاء فيها:

"ذِهني" من صروف الدهر يبكي،
البستانُ يبكي... والبستانيُّ...
صَوّح الزهرُ، وراح الوردُ يبكي دمهْ،
مُذْ هجر البلبلُ الْوَلْهانُ روضتَهْ... (ذِهني)"

والحال أنَّ تحليل هذا المقال تحليلا معرفيًّا، قد يستغرق الصفحات الطوال، ذلك أنَّ هذا المقال -في اعتقادنا- بؤرة في فكر الأستاذ فتح الله، كما أنَّ "لحظات البكاء" في دروسه السمعية بؤرة، لها رمزية تفوق رمزية الكلمات والألفاظ، ولكني سأكتفي ببعض الإشارات التي تفي بالغرض، تاركا الاستفاضة لمقامها.

• الدموع عند بني البشر صنفان: منها ما هو طبعيٌّ شائع، تسبِّبه الآلام، أو الفراق، أو الوصال، أو الحبُّ، أو الأشواق، أو الآمال، أو التطلعات... ومنها ما ينبُت في أرض الإيمان والعرفان، وِهاجه الحبُّ والوجد والشوق، وسببه معرفة الحقِّ تعالى، والإحساسُ به عند كلِّ حال. أمَّا النوع الأوَّل فشائع موفور، وأمَّا الثاني فنادر عزيز "لم يحظ بمثله إلاَّ ثلة من السعداء"؛

ولِفتح الله حظٌّ منه ليس باليسير.

ويوصف هؤلاء البكاؤون السعداء بأنهم "يسعون متلمِّسين يدَ الصانع في صنعته العجيبة، منتبهين إلى الجميل المتعالي في كلِّ بديعة من بدائع الحسن والجمال، مرهِفين أسماعهم بدقَّة متناهية إلى كلِّ همسة من همسات الكون التي تحدثهم عنه، عاطفين على كلِّ كائن في الوجود بحب عميق وعناية فائقة؛ لأنَّه من صنعه وأثره سبحانه، ومن ثم ناسجين كلَّ فقرة من قصيدة حياتهم على لُحمة العشق وسَدَى الحب". والشاهد هنا هو نسج فقرات الحياة على العشق والحبِّ، أي تحويلُ ما في الوجدان إلى الواقع وخطِّ الزمان، والربطُ بين القلب والحركة، ربطا ليس كأيِّ ربط، لكنه نسجٌ برهافة حسٍّ وعلوِّ ذوق.

ولكن، ينبغي الحذر من تصنُّع البكاء، ومن التباكي الذي لا ينبعث من صميم القلب، فإنَّ هذا النوع "لا يُفرح إلاَّ إبليس، بل ويلوِّث إكسيرا عجيبا صنعه الخالق ليطفئ نيران جهنَّم، ويُبطِلُ مفعولَه الخارق بما يحمل من آفة الرياء".

• ولقد حملَنا فتح الله كعادته إلى مسيرة الأنبياء نبيئا نبيئا، عبر قصصهم في القرآن الكريم، متتبِّعا بمبضعه الحسَّاس مواطن رقَّة القلب والإحساس المرهف والبكاء السعيد لديهم.

بدأ بيعقوب الذي ﴿..ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾(يوسف:٨٤)، وكظم غيظه وجِلا من الله تعالى؛ ثم لم يغفل إشاراتٍ لطيفة من أنبياء لم يذكر عنهم لفظا وتصريحا أنهم بكوا، لكنَّ فتح الله وظَّف مواقف لهم مستدلا أنها كانت قرينة بالدموع ولا ريب، إلى أن انتهى إلى خير البرية محمد ﷺ، الذي روي عنه أنه كان "دائم الفكرة متواصل الأحزان"، ولذا لقِّب

بـ"نبي الحزن"، وما كان صحابته الكرام على أثره سوى أبطال للبكاء والدموع، و"بكائين يتغنون بأناشيد البكاء، ويترنَّمون بأنَّات الدموع"؛ وسيرة المصطفى، وحياةُ الصحابة، وتاريخ الأصفياء، مشحونة بمواقف بكوا فيها حبًّا لله وخشية منه، أو حزنا وأسفا على أمر مسَّ دين الله، أو شوقا وفرحا بنصر مؤزَّر لدين الله، ساقَه الله على أيديهم.

• ليس البكاء لمجرَّد البكاء، وإنما الدمع الحقيق هو قرينٌ للتوبة، فالبكاء الصادق هو إكسير للذنوب، ومن ثمَّ يتحقَّق الغرض والمقصد العمليُّ لهذه الشحنة الإيمانية العظيمة، ذلك أنَّه "ما رَفعت دموعُ القلب رايتها في ساحة من الساحات إلاَّ تبدَّدت جيوشُ الإثم أمامها مقهورة مخذولة".

وما يلبث فتح الله يعودُ إلى عصره، ويلاحظ ما يلوِّثه من آثام وذنوب ومعاص، فيدعو من كان له سمع إلى "مهرجان البكاء"، ويوجِد وسيلة لاستعطاف أهل السماء، فيقول: "هلمّ بنا إذاً، نَذُبْ ذوَبانَ الشمعة الملتهبة، ونُحْنِ رؤوسنا انحناءها، وهي تشتعل وتذوب، ونتأمَّل مئات الذنوب وآلاف المعاصي التي اقترفتها أيدينا، ثم نطلق أنَّاتنا كالبلابل المفجوعة، حتى ينتفض أهلُ السماء يلحَظون، فيهبُّوا مسرعين يحملون مشاعل النور في أيديهم لكي يشهدوا مهرجان البكاء العظيم".

• وفتح الله لا يملُّ ولا ينثني من دعاء الناس إلى البكاء والحزن الصادق: "ناشدتكم الله أن نهُبَّ معا لنكون سقَّائي دموعٍ في هذه الصحراء المترامية الأطراف، المتآكلةِ من الجفاف، فنقيم موائد زاهية حديثة العهد بالسماء، تقدِّم للرائح والغادي فواكهَ غضَّة طريَّة نضرة، كلماتها شبوب شوق ولهيب أشجان، ونغماتها أنين قلب ونحيب وجدان".

وهكذا لم يكن البكاء عند فتح الله إلاَّ سلَّما ومعراجا يدفع الناس دفعا

لارتقائه، حتى يتحرَّروا من لوثات الأرض، ومن عار الإخلاد إليها... فالبكاء والحزن شحنة وطاقة تدفع إلى العمل الصالح، وإلى التغيير والخدمة، ونشر الخير، وليس سببا من أسباب الكسل والتأفف والتعفف والتحسر.

إنَّ قصَّة البكاء في تاريخ الدعاة قصَّة، وإنَّ قصَّة البكاء لدى فتح الله قصَّة أخرى، فإذا ما تمَّ حبك خيوط القصَّة وُلد رجل اسمه "الضحاك"،[1] ولكنَّ حقيقة اسمه عكس المنطوق، فهو "البكَّاء"... فأعظِم به من ميلاد، وأعظم به من مولود.

فلنستمع إليه وهو يخاطب طفلا صغيرا يبكي، ويقول له:

"ابك -يا صغيري- ما شئت البكاء...

معك سأبكي...

قدرَانا أن نبكي معاً

مثلك كنتُ،

ما أبكاك كان قد أبكاني

أمَّا اليوم،

فمن أجلك أبكي،

ودموعا غزارا عليك أذرفت" (ألوان، ص٥٩)

ولقد ذكر الشباب الملازم للأستاذ في خلواته، وبخاصَّة من أواسط الثمانينيات إلى أواخر التسعينيات، أنَّ الأستاذ كان دائم الحزن والبكاء والتألم من حال المسلمين؛ حتى إنَّه في يوم من الأيام دعا هؤلاء الطلبة وأمرهم بمغادرة "الطابق الخامس"، وبالعودة إلى ديارهم، أي أنه طردهم

---

١ Gulen: باللغة التركية يعني الضحاك.

من مرافقته، فحزن هؤلاء، وعيَّنوا وفدا لمحاورة الأستاذ ومعرفة السبب، فلمَّا سمح لهم بدخول غرفته بعد يومين من القطيعة والهجران، جلسوا، فاحتجوا، وعبَّروا عن عواطفهم... وبعد دقائق تحوَّل المجلس إلى حلقة للبكاء: فبكى الأستاذ طويلا، وبكى الطلبة على إثره...

وقال الأستاذ: "إني أحمل همًّا كبيرا، لكنَّني وجدتكم تضحكون وتمرحون، وتستسيغون النوم، فكأنَّ شيئا لم يقع، وكأنَّ أمَّة المصطفى ﷺ اليومَ بخير وعافية... والحقُّ أني أريدكم حاملي همّ... فوالله لو أنَّ الله تعالى أقدَرَني لنثرتُ على قلوبكم شرارات من الهمّ، إذًا لجفاكم النوم إلى الأبد".

هكذا حوَّل البراديم كولن الحزن والبكاء إلى آلية للحركية والبناء الحضاريّ، باعتماد التربية والرياضة والمجاهَدة، فانتقل الهمُّ والهمَّة مِن الأستاذ إلى الأتباع، ومِن الرائد إلى الجند، فوُلدت حضارة من عمق تركيا، ومِن رحم أوروبا، وفي قلب العالم...إنها حضارة الفكر والفعل، حضارة القلب والعقل والمادة، باختصار هي حضارة الرشد والرشاد.

الأسباب العقلية المعرفية

أولا: الحركية والفكر

لو أنَّ باحثا أكاديميا منظَّما حاول إنجاز بحث عن فكر فتح الله كولن، من مدخل تقني متخصِّص، واختار مثلا "العلم عند كولن"، أو "العمل عند كولن" فإنَّه سيقع في خيبة الأمل، وسيعود إليه المنهج خاسئا حسيرا، بخفي حنين؛ معلنا أنه لم يجد شيئا ذا بال يخصُّ العلم المجرَّد، أو العمل المجرَّد.

والحقُّ أنَّ ما يشبه هذه المحاولة قد مرَّت بي، وانتهيت إلى هذا الحكم

بعد أمد، فعدَّلت في منهجي وفي طريقتي، وغيَّرت اختياري وطريقي، بناء على تجربة وبحث.

لكن، قد يبدو هذا الحكم غريبا، فما تفسيره؟

يقول كولن في "طرق الإرشاد" ما نصه: "دستورنا في هذا الصدد أنَّ الأفكار التي تسري في مفاصل الحياة المعيشة هي التي تستحق الحياة"، أي أنَّ الأفكار الفلسفية المجرَّدة "لا تستحق الحياة"، وبمعنى آخر "تستحق الموت والإفناء والرمي في غياهب النسيان والهجران"(ص٨٧).

هذا الذي فعله الأستاذ في كامل كتاباته، وكان ملتزما بدستوره هذا أيما التزام، فلم يعرف -ولو مرَّة واحدة، فيما اطلعتُ عليه، وبشهادة معاشريه- الفكرَ المجرَّد ولا الفعل المجرَّد، ولم يضيِّع -ولو لحظة- في متاهات الانفصام والجفاء المعرفي بين الحركية والفكر؛ حتى إنه اعتذر إلى قارئه وإلى مستمعه وإلى المهتم بنتاجه الفكري، إذا كان قد أورد تعبيرا أو فكرة لا تمتُّ إلى الواقع بصلة، فقال: "قد لا تتوافق بعض تعابيرنا مع عالم الحقيقة والواقع، وتلك هي من نقصنا وقصورنا".

وفي "الأسئلة المحيِّرة" عرَّف فتح الله النبي والنبوَّة تعريفا دقيقا، معتبرا هذه العلاقة المتينة بين الفكر والفعل، فقال: "ليس النبي مجرَّد عبقريٍّ يملك عقلا كبيرا يستطيع النفوذ إلى صلب الأحداث. فالنبي هو إنسان الأفق، الذي تكون جميع ملكاته وقابلياته في ذروة الحركة والفعالية، وفي نشاط دائميٍّ موَّاج..."(ص٢٩).

ولسائل أن يسأل: هل كان هذا المزج بين الفكر والفعل عفويا فطريا؟ أم كان عن وعي وإدراك وتخطيط؟

يجيب الأستاذ بصراحة: "إنَّ ما نقدِّمه من أصول وقواعد قد اتُّخذ فيه

جانب التطبيق العمليّ أساسًا، وأعِدَّ في ضوء الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة، ممن خبرها في الواقع، فجالس رجالات الإرشاد والتبليغ منذ عهد الصبا، حتى تقلَّد وظيفة الدعوة والتبليغ رسميا"(طرق الإرشاد، ص٨٧).

إذن، أوَّلُ قاعدة ننحتها في سياقنا هذا أنَّ الفكر والفعل لم ينفصلا يومًا في "البراديم كولن"، ولا يجدي نفعا أن نقطع الأواصر بينهما، ونحن نتتبع معالم هذا النموذج، ونحاول اكتشاف خط سيره ونهجه.

ثم إنَّ الأستاذ لَمَّا تشرَّب هذا الارتباط الوثيق بين الفكر والفعل راح يزرعه في الناشئة وبين صفوف شباب الخدمة، ويعلِّمه لكلِّ من ابتلي بمهمة الدعوة، فلنستمع إليه وهو ينصح هؤلاء: "لا بدَّ أن يكون من يتولى مهمَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجهَّزا بالعلم؛ ذلك أنَّ العلم والتبليغ (الواقع والحركية) وجهان لعملة واحدة".

والقارئ لمقالات الأستاذ يجده يتفنَّن في إيراد هذه العلاقة المتلاحمة بين الفكر والفعل، حتى لا يتوهَّمَ متوهِّم أنَّ ثمة علما خالصا، أو عملا خالصا.

يقول في مقال "فلسفة الحياة عندنا"[1]: "يعيش قسم من البشر من غير ممارسة للفكر. وقسم آخر منهم يفكّر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة قط. أمَّا ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكّر، وأن يبتكر أنماطاً فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مُركّبات فكرية مختلفة"(صرح الروح، ص١٢٠).

ويقول في مقال آخر بعنوان "نحو عالمنا": "لا يخفى على نظر المتبصِّر

١ ينبغي أن ننتبه إلى العنوان، وندرك أنَّ ما ورد تحته ليس كأي مقال آخر.

تداخلُ الفكر والحركية ببعضهما في وقائع التاريخ العظيمة. تداخل يتربَّى ويتبرمج فيه العملُ الحركيُّ بالفكر من جهة، وتهيِّئ فيه الحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة من جهة أخرى"(صرح الروح، ص٨٠).

ويتفق النصَّان السابقان أنَّ الإبداع المتميز، والتجديد الحقَّ، ثمرة طبيعية لهذا المزج المطلق بين الفكر والحركية، فيعبِّر عن ذلك في النصِّ الأول بـ"آفاق مركَّبات فكرية مختلفة"، وفي الثاني بـ"برامج جديدة". وهل الإبداع -اليومَ- سوى مبتغى كلِّ مشروع فكريٍّ وحركيّ، به توزن جدَّته وجدِّيته، فإن عُدم هذا الأبداع عن المشروع قيل عنه إنه نمطيٌّ تقليديٌّ عقيم، وإن وجد عُدَّ ذلك الفكر والحركة قيمةً مضافة في الفكر البشري، وفي تاريخ الإنسانية؟!

ويبدع كولن في تقريب الرابطة المعرفية للعلاقة بين الفكر والحركية، بصورة فنية بلاغية رائعة، حتى يرسِّخ نموذجا ودستورا لا يقاوَم، ولا يُسمح بالزيغ عنه قيد أنملة، لمن أراد أن يلتحق بصفِّ "البراديم كولن"، فيقول: "فكأَنّ الفكر -بهذا المعنى- سماءٌ ومطر للعمل الحركيّ، أو فضاء وهواء له، وكأنَّ الحركية أرض وسندانة للفكر، أو تراب وقوَّة الإنبات فيه. فلا أحسب هذا الأداء المتقابل بينهما غلطاً. ذلك بأنَّ كلَّ جهد حركيّ هو تحقُّق فكر وبرنامج، وكلَّ فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أطره الحقيقية وبلوغ مراميه في ثنايا التحرُّكات الملتزمة به"(صرح الروح، ص٨٠).

ولا يفوِّت كولن فرصة إقامة صرح الروح، وبناء أطره المعرفية، فيخصِّص مقالا لهذه الخلطة الحضارية السحرية العجيبة، ويضع عنوانا بارزا له، وهو: "الحركية والفكر"، وهنا يشدُّني الانتباه إلى البدء بالحركية، ثم الفكر، فلم يقل: "الفكر والحركية"، على عادة الكتَّاب؛ وكأنَّ المؤلِّف

obeikandi.com

يُلفت انتباهنا إلى صعوبة تعيين الأولوية، أو كأنَّه يريد أن يردَّ الاعتبار للحركية، ناقما من الفكر العقيم الذي ينتهي في أعمدة الجرائد أو أرفف المكتبات، فيقدِّم الحركية على الفكر، بهذا الاعتبار.

ويستهلُّ كولن مقاله هذا بعبارة تؤكِّد ما قلناه سابقا، عن العلاقة المزجية الدائرية بين الفكر والحركية، فيقول: "نحن نلخِّص خطَّ كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإنَّ وجودنا الحقيقي لا يتمُّ إلاَّ عبر الحركية والفكر... حركيةٌ وفكرٌ قادران على تغيير الذات والآخرين" (صرح الروح، ص٧٥).

وليس أدلَّ على ما قاله الأستاذ من أنَّ الثنائية المتلازمة نموذجٌ من النماذج الراسخة والواعية والبارزرة، وكأنَّه يلخِّص خطَّ كفاح ورثة الأرض في هذا النموذج، بل لعلَّه يرسم حدًّا من الحدود الفاصلة الأساسية بين "البراديم كولن" وغيره من المؤسَّسات والحركات. فمَن كان فكره معجونا بفعله، ومن كان فعلُه مخلوطا بفكره، عُدَّ ضمن الخدمة، ومن فصل بينهما -بأيِّ مبرِّر كان- انتفى أن يُقبل جنديا في المشروع.

ومن ثمَّ، وكنتيجة طبيعية، لا نجد ضمن الخدمة من يتفرَّغ للعلم النظريِّ، ويدوِّن المجلَّدات الطوال في فنٍّ من الفنون، دون أن يَنزل بعلمه إلى أرض الواقع، ليختبره ويبتليه... وهذا ما شهدناه فعلا، ونحن نتتبع أنفاس الحركة: فكلُّ مشتغل بالفكر والعلم تجده من جهة ثانية حركيا دعويا إرشاديا، سليقةً ومِراسًا لا تكلفا واصطناعا.

وكنتيجة ثانية، لا تجد ضمن أفراد الخدمة مِن عامَّة الناس الحركيين، سواء أكانوا رجال أعمال، أم صناعيين، أم تجارا... لا تجدهم متنكِّرين للعلم، مبغضين للمتعلِّم؛ وإنك لتراهم متشوِّفين للمعارف، ومدركين

لأهمية العلم والبحث والنظر، حاضنين لكلِّ مشروع تعليميٍّ علميٍّ، مهما كلَّفهم من مال أو جهد.

والنوعان المذكوران، أي العالم الحركي، والحركي الخادم للعلم؛ يلقِّبهما فتح الله بلقب واحد، جامعٍ لهما في مصطلح واحد هو: "إنسان الفكر والحركية"، ويجعل هذه الصفة عنوانا لمقال له، يقول فيه: "إنسان الفكر والحركية هو رجل الانطلاقة والحملة، الحركيُّ المخطِّط، الذي يقوم ويقعد على خفقان شدِّ العالم بالنظام مجدَّداً، ويمثِّل حركة إقامة صرح الروح والمعنى من جديد، بعدما آل إلى السقوط ومنذ عصور، ويُفسِّر قيمنا التاريخية كرَّة أخرى، ويستخدم بمهارة مكُّوك الإرادة والمنطق في الفكر والحركة، وينقش على قماش روحنا ومعنانا زخارف مستظرفة وجديرة تناسبنا. فهو في خط الحياة الممتدِّ على مدى فصولها من الحسِّ إلى الفكر، ثم إلى الحياة العملية، يتنفَّس النظام دوماً، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبداً"(صرح الروح، ص٦٣).

ولكن، ماذا عن الذي يفصل بين العلم والعمل، ويقطع الأواصر بين الفكر والحركة؟

يعمد الأستاذ -مرَّة أخرى- إلى الصورة البلاغية ليبدع في وصف هؤلاء، بغرض ترسيخ قُبح حالهم ومآلهم في الأذهان، ودفع النفوس بشدَّة إلى النفور والتقزز من هذه الحال، ومن هذه الصورة:

- إنَّ الذي يدَّعي الفكر مع السكون والخمول الدائمين، يشبه "قطعة جليد سقطت في الماء واستسلمت للذوبان"(صرح الروح، ص٥٧)
- وأمَّا حينما تحجب "أنوار الفكر عن إضاءة زوايا المجتمع"، فذلك شبيه بـ"المشي في السبات، والتكلم في النوم"(ص٨١)

• والذين يعيشون من غير فكر "هم دمىً تمثل فلسفة حياة الآخرين" (ص١٢٠)، بل إنهم، بسبب ضررهم المحدق، "يشبهون برك الماء العقيمة والمحرومة من البَرَكة والخامدة والمعرَّضة إلى الأُسون. فلا يبعد أن يتحوَّلوا بمرور الزمان إلى مَجمع للفيروسات ومأوى للمكروبات، بَلْه أن يفيدوا بشيء باسم الحيوية".

• ولِضحالة فكر هؤلاء وسطحيته تراهم "كأنهم أطفال يقلِّدون كلَّ ما يرون ويسمعون، وينجرون وراء الطغام هنا وهناك"(ص١٢٠).

• أمَّا من يكتفي بالفكر المجرَّد، ويستغني عن المجتمع معرضا عن الواقع، ويقضي وقته بين ثنايا الكتب والأسفار، فيصفه كولن، في معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الزمر:٩)، ويقول: "إنَّ مَن يجول في بطون الكتب كالفأر متتبعاً خزينة الأسرار، يصرف جلَّ عمره في كتابة الحواشي والشروح، مِن دون أن يقرأ سطراً واحداً من علم الحقيقة، هذا الذي يطلق عليه اسم العالم، هو بالتعبير القرآني كمن يحمل أسفاراً".

وفي المقابل يعلي الأستاذ من شأن من يجمع بين الفكر والحركة، ويقارنه بحمَّال الأسفار، فيقول: "أين هذا من الإنسان الكامل الذي يقرأ سطراً، وإذا به يحلّق في السماوات، ويعيش في كلِّ آن في نشوة وانتشاء روحي".

وفي الحقيقة إنَّ العلم الذي يثمر عملا هو العلم الموصل إلى الله تعالى، والمحقِّق رضاه ومعيته؛ أمَّا العلم المجرَّد عن العمل، فهو الشلل النصفيُّ، المعيق عن كلِّ نتيجة مرجوَّة، والفرق بينهما -كما يقول كولن- " كالفرق بين "لا شيء" و"كل شيء". فالعلم الموصل إلى الله "كلُّ شيء"

والذي يتركك في الطريق "لا شيء"(طرق الإرشاد، ص٩٠).

ومن كان شأنه الوصل بين الحركة والفكر يليق بنا أن نصفه بأنه بلغ مرتبة "ولي الحقِّ اللدنيّ، الذي يعِدُّ قادة أركان الروح، ومهندسي العقل، وعمَّال الفكر" إلاَّ أنَّ هؤلاء الواصلين ليسوا سواء "فمنهم من سبق فكرُه عملَه الحركيِّ، ومنهم من تبارى فكرُه مع عمله الحركيِّ، ومنهم رجال حركة فكرُهم مكنون ومخزون، رجالٌ في استقامةٍ مديدة يشعُّون ضياء" (صرح الروح، ص٦٤).

وإذا ما أضفنا الدعوة والتبليغ والإرشاد إلى ثنائية العلم والعمل، فقد اكتمل صرح الدين كلِّه، يقول فتح الله: "العلم والتبليغ وجهان لحقيقة واحدة، أمَّا العمل فهو شرط لا ينفك عنهما. فلا يفرز هذه الثلاثة بعضها عن بعض"(طرق الإرشاد، ص٩٣).

إنَّ نموذج الرشد يعنى أوَّل ما يعنى بالعلاقة بين العلم والعمل، ويقوِّم كلَّ فكر وكلَّ حركة على ضوء هذه العلاقة، فإن هي كانت متينة كان المشروع راشدا، وإن حدث شرخ أو قطيعة بينهما، بأيِّ شكل من الأشكال، فهذا المشروع غير راشد... والحقُّ أنَّ "البراديم كولن" بلغ الذروة في هذا الشأن، فهو راشد بكلِّ المعايير؛ ذلك أنه اهتمَّ بهذه العلاقة أيما اهتمام، وهو في الواقع العمليِّ مارس هذه العلاقة أيما ممارسة.

وينبغي أن يدرك القارئ أنَّ البحث عن هذه العلاقة ليس لمجرَّد المتعة أو التحليق في البحث المعرفيَّ الممتع، بل هو مقدِّمة ووسيلة لنسج واقع على منواله، وتصويب واقع -نحن فيه- من خلاله، وما أروع ما قاله كولن في هذا الشأن، تحت عنوان "العلاقة بين العلم والإرشاد": "وباختصار نقول: إنَّ الإسلام نظام إلهيٌّ يربط العلم بالعمل ربطاً محكماً. ففي إحدى

جانبيه الإيمان، والجانب الآخر تحويل هذا الإيمان إلى عمل وفعالية. نعم، إنَّ ذكر أعمالِ وعباداتِ الآخَرين وروايةَ حكايات عنهم جميل من جهة لما فيها من عبر وعظات، ولكنَّ الاكتفاء بهذا القدر فقط من دون القيام بتطبيق تلك الأعمال في الواقع يؤثِّر تأثيراً سلبياً في المقابل. فالإسلام ليس ذكر مناقب الأولياء أو الاستماع إليها فحسب، بل هو تحويل ما يُذكر عنهم إلى حياة معيشة. نعم، الإسلام إيمان وعمل. فالذين يتكلَّمون عن العمل الإسلامي من دون أن يدركوا أنَّ الإسلام إيمان وعمل كلامهم هذر ليس إلاَّ"(طرق الإرشاد، ص٩٤).

نعوذ بالله أن يكون كلامنا هذرا، ونسأله أن يجعلنا من الراشدين...

ثانيا: المعيَّنية، أو التناسب بين السبب والنتيجة

زار أحد أنشط مسؤولي الخدمة المدارسَ العلمية الجديدة في الجزائر، فعاين المؤسَّسات والبنايات، والتقى بالإدارة والأساتذة والتلاميذ والتلميذات... فلمَّا حان وقت المغادرة قلتُ له: "هذه هي مشاريعنا، وهي -طبعا- صغيرة جدًّا مقارنة بمشاريع الخدمة، عبر العالَم".

فقاطعني قائلا: "لو وضعنا مؤسَّساتكم -هذه- في خطِّ الزمن، وضمن سلسلة الأسباب، لعلِمنا أنَّ هذه مقدِّمات لها نتائجها، وأنها بذور ستؤتي أكلها ولو بعد حين".

أُعجِبت يومها من منطقه الواضح، كما أعجِب مَن معي من مسؤولي المدارس العلمية، وكنَّا متيقنين أنَّ هذا الفكر ضاربٌ جذوره في أعماق منظومة عميقة، ولكن لم نكن ندري: كيف؟ ولم نكن نعرف شيئا عن التفاصيل.

ومع مرور الوقت، ومعاشرةِ شباب الخدمة من كلِّ الأطياف، وجدتُ أنَّ هذه الفكرة الواضحة سمَةٌ من سمات "البراديم كولن"؛ وأنَّ الربط بين

الأسباب والنتيجة صفةٌ لازمة للخدمة، ولمشاريع الخدمة.

وعندما تفرَّغت لدراسة "البراديم كولن"، هالني ما قرأته وعاينته من الاهتمام بالمنطق وبالفكر الرياضيّ، ففي حين كان البعض يتحاور حول جواز قراءة المنطق، وينشر البعضُ الآخر كتبا ومقالات تفتي بأنَّ المنطق زندقة وكفر، ويحشر لذلك أدلَّة نقلية مبتسَرة، لعلماء كبار لم يُفهموا حقَّ الفهم، أو هم عاشوا ظروفا مختلفة، فجاءت أحكامهم في سياقات مختلفة عن سياقنا... في هذا الحين، وبالمقابل، كان الأستاذ كولن بفضل ملكاته الشمولية وسعة أفقه وخبرته، يعدِّد صفات ورثة الأرض الضرورية، التي باكتسابها يتحقَّق وعد الله تعالى للمؤمنين بميراث الأرض والاستخلاف فيها، وبغيرها لن يتحقَّق هذا الوعد فيهم، مهما ادَّعَوا وأمَّلوا وتبجَّحوا... مصداقا لقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ...﴾(النور:٥٥).

ومن أبرز هذه الصفات التي تميِّز ورثة الأرض "الفكرُ الرياضيُّ" ذلك أنَّ سرَّ قيام الحضارات، ونهضة الأمم، يعود إلى الرياضيات، "لقد حقَّق الأوائل في آسيا في الزمن الماضي، ثم الغربيون، نهضتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنسانية في تاريخها كثيرًا من المجاهيل والمغلقات بعالَم الرياضيات المفعمة بالأسرار".

ولقد أخرج كولن أثر الرياضيات من مجرَّد معادلات وتمرينات، إلى كونها وسيلة وأداة للتفكير السليم "فإذا تركنا التصرُّف المفرِط للحروفية جانبًا، فإنَّه لولا الرياضيات لَما توضَّحت المناسبات بين البشر ولا بين

الأشياء... فهي -كمصدرِ نور- تُضيء طريقنا في الخطِّ الممتدِّ من الكون إلى الحياة، وتُرينا ما بعدَ أفق الإنسان، بل أعماقَ عالَم الإمكان الذي يعسُر إعمال التفكير فيه، وتوصلنا إلى غاياتنا"(صرح الروح، ص٤٣).

والرياضيات -بهذا العمق- صنوُ الإيمان، ما دامت تعلِّمنا كيف ندرك "غاياتنا"، ولذلك فالعلم بجزئيات الرياضيات وبالمعادلات الرياضية المعقَّدة "لا يعني أنَّ العالِم بها رياضيٌّ. الرياضيُّ يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكريًّا، ويصاحبها دائمًا في الطريق الممتدِّ من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود".

والرياضيُّ هو الذي يصل ما يبدو في الظاهر منفصِلا، وهو الذي يكشف القوانين والعلاقات، ويعالج الأسبابَ والمسببات "يصاحبها دائمًا من الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء، ومن المادَّة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف" ذلك أنَّ خالق جميع هذه المعارف والتخصُّصات هو إله واحد، وهو سبحانه مُجريها على نظام واحد، وإن صعب على الفكر البشريِّ أحيانا إدراك الكنه الواحد لجميع المخلوقات، إلاَّ أنَّ العجز ليس دليلا على العدم.

وهذا الدور الذي تلعبه الرياضيات في التدريب على التعامل مع القوانين والأسباب يُعيدنا إلى حوارات فلسفية عميقة بين علماء الإسلام عبر التاريخ، وفي العهود الذهبية للفكر والحضارة، لعلَّ ذروتها ما كان بين أبي حامد الغزالي الذي ألَّف "تهافت الفلاسفة"، ودافع فيه عن عدم تلازم السبب والنتيجة حتما، وإنما العادة هي التي أورثت عقولنا الاعتقاد بالتلازم، فجاء الردُّ عنيفا من ابن رشد القرطبي الأندلسي، في كتاب "تهافت التهافت"، موضِّحا أنَّ كلَّ سبب لا بدَّ أنَّ يؤدِّي إلى مسببه، وأنَّ الكلَّ من

خلق الله تعالى، فمنظومة الأسباب نفسُها سنة من سنن الله تعالى.

والقارئ لتاريخ العلوم ولنظرية المعرفة، يطالع حوارا آخر عاد إلى الساحة، على شكلٍ فزيائيٍّ هذه المرَّة، في العلاقة بين السبب والمسبب، وذلك حين أثبت رواد "مبدأ الريبة" أنَّ للجسيمات إرادة، وأنها ليست بالضرورة ملتزمة بمنظومة الأسباب، فزعزعوا عرش إينشتاين -وهم تلامذته- ذلك أنه بنى كلَّ صرحه النظري على الأسباب، ومن ثمَّ صعب عليه ما دافع عنه "بور" و"هايزنبرغ" وغيرهما، حتى قال يوما، على إثر هذا الجدل: "ليتني كنت إسكافيا، ولم أعرف الفزياء!"(ديفيد ليندلي: مبدأ الريبة).

وها هو الحوار الرياضيُّ والمعرفيُّ حول الأسباب والمسببات يتمثل مرة أخرى، على صورة محاورات فكرية حضارية في العالم الإسلامي الذي يشهد فجر نهضته، ويأمل عصرا ذهبيا أفضل مما مضى؛ فيما نحا البعض منحى تقليديا، ودافعوا عن الواقع الإسلامي كما هو، وبرَّروا له كثيرا من ضعفه، وتشبثوا بالحرفية واللفظية والنصية، راح آخرون يعيدون الأمور إلى نصابها، ويضعون العقل في موقع الذروة، ويعرضون فكر المسلمين "لصعقات كهربائية"؛ حتى يدرك أنَّ كلَّ نتيجة اليوم لها سبب في الماضي، وأنَّ كلَّ سبب اليوم سيؤدِّي إلى نتيجة حتمية غدا... وأن لا شيء خُلق هباء أو عبثا.

- فها هو مالك بن نبي يقف طودا شامخا بنظرية "القابلية للاستعمار" التي هي عبارة عن تفسير لظاهرة الاستعمار، عاين فيها السبب الذاتي للتخلف والتبعية، بينما كان الكثير من المفكِّرين يُرجعون كلَّ هزيمة إلى العدوِّ وإلى المستعمِر... ويوضِّح ابن نبي أنَّ من كانت ذاته "قابلة للاستعمار" استُعمر لا محالة، ومن كانت ذاتة "رافضة للاستعمار" تحرَّر

ولا ريب، فالمعالجة الحقيقية لا تكون في الأسباب الخارجية بل في الأسباب الداخلية الذاتية.

واتهم الرجلُ بالتبرير للاستعمار، فلاقى عنتا شديدا...

• وهذا عبد الوهاب المسيري في قراءته لليهود واليهودية والصهيونية، دافع عن التفسير العقلانيّ للظاهرة، باعتبار الأسباب الحقيقية، بعيدا عن التفسيرات الخرافية، التي تؤمن بالشعب الذي لا يُقهر، وبالقوَّة الخارقة لليهود، وبأنَّ القدر شاء أن يسودوا ومن ثم فإنَّ العمل في اتجاه التحرر هو مواجهة للقدر... فبنى المسيري ما يسمى بـ"النماذج التفسيرية المركَّبة"، التي تغوص في عالَم الأسباب، التي قد تبدو متباعدة متناقضة أوَّل وهلة، فجمع بينها في نظام ومنطق وتفسير واحد، وخرج بنموذج تفسيري أقرب إلى الحقيقة، يمتلك قوة تفسيرية عالية.

واتهم الرجل بالنيَّات المبيَّتة، وبأنه يعمل لصالح اليهود، فلاقى عنتا شديدا...

• ويأتي محمد فتح الله كولن في سياق مختلف، فيعالج ظاهرة ارتباط الأسباب بالمسببات في عالم الأنفس والآفاق، تحت مسمَّى "المعيَّنية"، ويعرِّفها بأنها: "التناسب بين السبب والنتيجة". وهي كما عرَّفها عوني لطفي أوغلو: "الخصلةُ التي تحقِّق ذاتية الشيء (عند هيجل)، وتختلف "وضعية" الشيء عن المعيَّنية بأنها تحدِّد العلاقة بين الشيء مع الأشياء الأخرى. وفي المعينية تكون عائدية الخصال والصفات إلى الشيء بذاته وعلاقاتها فيما بينها ذاتيا وفي نفس الأمر"(صرح الروح، ص١١٥).

ولقد نقل الأستاذُ كولن مفهومَ المعيَّنية من حقل المنطق إلى مسار التاريخ، فرآه رؤية شمولية، متحرِّرة من ضغط الساعة واليوم، فقال: "إنَّ

تماسُك أجيال الغد وقوامُها وسعادتها، حاصلٌ من حواصل الأرواح والأنفاس المضحِّية هذا اليوم. وإنَّ انتظار مستقبل متكامل ومنظَّم من رُكام البشر الضجِر الشريد السادر في الراحة والرخاوة، ليس إلاَّ محض وهم وسلوان كاذب".

ويصوغ كولن القاعدة السببية في هذه العبارة: "وكما يحمل وجودُنا اليوم سمات أمسِنا، بخيرها وشرِّها، كذلك يكون الغد نسخة من اليوم بصورتها المطوَّرة والموسَّعة والمتحوّلة من الفردية إلى الاجتماعية".

وبما أنَّ القاعدة الفلسفية الجافة تعجز عن إبلاغ العقول بجميع مستوياتها هذا المعنى العميق، عمدَ كولن إلى الصورة البلاغية، عادته كلَّما بلغ المركزَ في فكرة من أفكاره، فراح ينسج تعريفا للمعيَّنية يسهل على كلِّ إنسان إدراك مغزاه وبعده، ويقول: "إنَّ حياتنا "الملّيّة" بألوانها وأحوالها الخاصَّة، تشبه نهراً يسيل متسرِّباً من جبال الماضي ووديانه، وسهوله وأريافه، فينحدِر إلى المستقبل بتلوُّناته الخاصَّة. وإذ ينحدر نحوَ قابل الأيام، يحمل معه خصوصيات الأرجاء التي يمرُّ منها. وسنرى إن أمعنا النظر في الشلال الذي ننحدر نحن أيضاً معه، آثار أقدامِ أجدادنا، وخلجاتِ أرواحهم، ونتاجاتِ أدمغتهم وعضلاتهم، وأفكارهم، وخفقاتِ قلوبهم. فلا جرم أنهم منابع حياتنا، وأننا بأنفسنا وبحركيات تاريخنا، عصارة وجود الأجيال القادمة".

ولكن هل "المعيَّنية" عند الأستاذ مدخلٌ إلى القدرية والجبرية، والاستسلام لعالم الأسباب؟ أم هي حركة وحركية في عالم الأسباب، وضمن عالم الأسباب؟

يسارع كولن ويجتهد في تنبيهنا إلى أنَّ عالم الأسباب -بإذن الله- من

صنع أيدينا، وأنَّ "روحَ الأمَّة تحافظ على جِدَّتها وشبابها، وتبقى إلى الأبد، مهما هرمت أحوال الدنيا، وتبدَّل الزمان كلاًّ، وتغيَّرت العصور..." ما دمنا قد اتخذنا الأسباب التي أمرنا بها الله تعالى، ولم نستسلم للأوهام والأحلام.

ولا يفوت الأستاذَ أن يؤصل حكم اتخاذ الأسباب، باعتماد لغة الفقه وأسلوبه، ذلك أنَّ المسلم يخضع أبدا إلى الحكم الشرعيّ، ولا يصدِّق دائما ما يأتي من آراء في الفلسفة وغيرها، فيقول: "فلا يصح في روح الدين -وقواعد الشريعة الفطرية- إهمالُ الأسباب، ثم توقُّع حصول النتائج المتعلقة بالأسباب، أعني من جهة العلية بداهة. وما نشهده دائماً في صدر الوجود من "مُعَيَّنِية" (Determination) بقدر معلوم وشروط متعلقة بظروفها، جارية في أحداث التاريخ أيضاً".

والمقرَّر تاريخيا ومنطقيا أنَّ "الذين يزرعون الفتنة، أمس أو اليوم، يحصدون الشرَّ، والذين يزرعون فسائل الخير يجنون ثمار الخير والبركة" ولكن لسلسلة الأسباب قانون آخر يحكمها، وهو قانون الزمن، فربما أمهِلت النتيجة ولم تظهر مباشرة، وإذا آن أوانها لا يؤخِّرها شيء، إلاَّ قضاء الله وقدره "وقد تنقضي سنوات أو عصور بين السبب والنتيجة، ولكن حين حلول الوقت المرهون، والإحساس بالأثر، تغدو النتيجة عين الجنة للأبرياء، وعين الجحيم للعصاة والظالمين".

والمعيَّنية أساسها عند المؤرِّخين، ومن أبرزهم "توينبي"، ما يُعرف بروح التاريخ؛ غير أنَّ كولن يعود إلى المنطلق ويعدِّل المصطلح، موافقا على الأساس، فيقول: "الأصح والأصوب، أن نشرحه وفاقا لروح العدالة في الشريعة الفطرية" عوضا عن روح التاريخ.

وما أروع اعتبار الأسباب عقديا "ستاراً لمشيئة الله تعالى وقضائه، أحاط دنيانا بها. فهذا لطف إلهي ذو حكمة... وهو وسيلة لنا وزينة لازمة نتزين به لتنفيذ التكاليف التي علينا".

ولعلَّ المطَّلع على النظريات المعاصرة يقع على ما يسمَّى بنظرية الفوضى "Théorie du Chao"، والتي كانت وليدة الرياضيات والفزياء، ثم انتقلت إلى العديد من المجالات، منها علم المناخ وغيره. وتقرر هذه النظرية مبدأين أساسيين، هما:

حساسية كلِّ شيء بالظروف الأولية لنشأته (أي أسبابه الأولى).

تكرار النتيجة بتكرار السبب.

ولقد اعتمد الأستاذ هذه النظرية، أو هو حلَّلها من مدخل مغاير، مدخل عقديٍّ لا فزيائي، ثم طبَّقها على التاريخ وعلى الأفعال البشرية، فقال: "مِن هذه الوجهة: قد يكون دبيب تحرُّكٍ صغيرٍ بدايةً لِكيان كبير بعد سنوات وسنوات، وقد تحصُل نتائج وخيمة تزلزل العصور من قناعة خاطئة أو تصرُّف سقيم" ويقرر علماء نظرية الفوضى أنَّ "رفّة جناح فراشة في مكان ما من العالم، قد تتسبب في حدوث إعصار في مكان بعيد عنه" (جايمس غليك James Gleick: نظرية الفوضى: علم اللامتوقّع).

ولكن، بينما يستنتج أصحاب نظرية الفوضى أنَّهم عثروا على نظرية تفسر كلَّ شي، وهي شاملة لكلِّ العلوم، وأنهم أمسكوا بخيط فهم الكون كلِّه؛ إلاَّ أنهم توقَّفوا في الطريق، ولم يعلنوا بعدها أن لا شيء خُلق عبثا، وأنَّ كلَّ شيء مخلوق بنظام محكم، وله دور في سلسلة الموجودات، وأنَّ الإنسان ضعيف وعاجز عن إدراك كلِّ الأسباب، وأنَّ الله وحده هو الذي يعلم كلَّ سبب وكلَّ نتيجة، مهما كانت بعيدة أو غير محتملة عقلا... فهو سبحانه

خالق الأسباب والنتائج ﴿مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(يونس:٦١).

ولذا، فإنَّ الأستاذ لم يعرض هذا القانون لمجرَّد الترف الفكريّ، ولكن ليزرع في النفوس بذور الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة، فهذا دوره وهذه وظيفته، وأيُّ فعل مهما بدا صغيرا، إذا كان خيرا، فسيأتي أكله بعد حين، ومن ثمَّ لا يجوز أن نستهين بأيّ فعل صادر من مؤمن ما دام صادقا فيما أتى، يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧)، ويقول الرسول ﷺ: "لا تحقرنَّ من المعروف، ولو أن تلقى أخاك بوجه حسن".

وبالمقابل لا يجوز الاستهانةُ بالشرّ مهما كان صغيرا، فقد يكون سببا لشرٍّ أكبرَ، ومقدّمة لشرٍّ مستطر، ولو بعد حين، يقول سبحانه ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨)، ويقول ﷺ: "إنَّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله، لا يرى بها بأساً، لِيُضحك بها أصحابه، يَهوي بها في جهنم سبعين خريفاً"(رواه البزار).

ولذا يوجّه الأستاذ الناس إلى البعد العقدي الإيماني لمبدأ المعيَّنية، فيقول في كتاب "صرح الروح": "فلنقرَّ أولا بمراعاة الأسباب؛ لأننا نعيش في عالم محاط بها، نحن نعيش في عالم الأسباب، فإهمالها محض جبرية وضلالة بالحاصل، وليست مراعاة الأسباب وحدها، بل العناية بالمناسبة بين السبب والنتيجة من أهمّ لوازم التكليف"(ص٩٨).

ومن تطبيقات مبدأ "المعيَّنية" نقرأ مقالا عند الأستاذ في العلاقة بين القرآن والقلب، حيث يجعل "الصفات القرآنية" سبب كلِّ حضارة، ويعتبر كلَّ تخلف إنما نشأ عن الإعراض عن كلام الله تعالى، بعيدا عن الأسماء والمسمَّيات، وفي منأى عن الاعتبارات الكلامية والتقليدية، وقد لا يقبل

هذا التصريف من جُبل على الجدل الكلاميِّ دون الولوج إلى عمق دلالة الأسماء والأحكام والصفات، أمَّا من أوتي فهما عميقا للعقيدة، وإدراكا واسعا لحقيقة كنه صفات الله تعالى، ولقوانين الكون وسننه، فإنه يجد هذا التوجيه بديعا ورائعا وموفقا.

يقول كولن: "إنَّ سبب تفوُّق الغرب في الوقت الحاضر، هو ما أخذوه من صفات المسلمين، لذا تراهم يجولون في الذرى. بينما تحوَّل العالم الإسلامي إلى حمَّال رذائل صفاتهم، فهو عندما يأتي إلى المسجد يلقي صفاتهم كالمعطف على كتفه، والآخر يسعى إلى الكنيسة بالصفات التي تخصُّ المسلمين. بمعنى أنَّ الغالب في الوقت الحاضر ليس الغرب نفسُه، وإنما الصفات الإسلامية التي فيهم. وكذا المغلوبون ليسوا هم المسلمين، بل الصفات الكافرة التي قلَّدوها. فلا نجاة لنا حقاً إلاّ باعتصامنا القويّ بالقرآن الكريم"...

بهذا تمكن الأستاذ من الفصل بين الإسلام والمسلمين، ولم ينحصر في التسميات؛ لأنه بنى فكره على مبدأ تناسب العلَّة والمعلول، والسبب والنتيجة؛ فالحضارة والتطور والتفوق كلها نتائج لأسباب معيَّنة، والتخلف والانهزام والذلة جميعها نتائج لأسباب سابقة لها، فإذا تمت الأسباب، حتى وإن كان ذلك على يد غير المسلمين، جاءت النتائج متناسقة، وفقا لعدل الله تعالى، وإذا امتنعت الأسباب امتنعت النتائج، وسلسلة الأسباب سنن من سنن الله تعالى، لا تحابي أحدا.

ولقد اعتمد الأستاذ للوصول إلى هذا الغور على مبدأ المعيَّنية، لكنه لم يجعل منه إلها آخر غير الله، كما عند بعض الفلاسفة، ولذا قيَّده بعبارة "إلى حدٍّ ما"، في عنوان المقال: "المعيَّنية إلى حدٍّ ما"، علما أنه كان في

معرض الردِّ على بعض الفلاسفة الذين نادوا بالمعينية بلا حدٍّ، ولا قيد ولا شرط. و"البراديم كولن" له ميزة الاعتدال والنضج، والرشد، وهذا دليل آخر على هذا الحكم.

الأسباب الدعوية الحضارية

أولا: سرُّ الدعوة، أو قلوب تشرَّبت المحبَّة

لعلَّ الغرض العمليَّ يلزمنا بأن نبدأ بقصَّة عن أثر المحبَّة والشفقة في كسب القلوب، وزرع الطمأنينة في النفوس، أوردَها الأستاذ فتح الله، وذكر أنَّه كرَّرها مرارا، لِما لها مِن بعد ومعنى في فكره.

قال: "شاب اهتدى حديثا، وعندما وجد نفسه في هالة من نور، تردَّد كثيرا إلى مجالس الذين يغمُرهم ذلك النور. وفي إحدى المرَّات عندما ذُكرت تعدِّيات قاسية لا تخطر على بال من الجبهة المخالفة، قام أحد الشباب المتحمِّسين وقال: يجب أن يُذبح جميع هؤلاء!. وما إن سمع ذلك المهتدي الجديد هذا الكلام حتى اصفرَّ واكْفَهرَّ وجهُه. وقال للمتحمِّس: لا تقل هذا يا صديقي، فلو كنتَ قد نفَّذت هذا القرار قبل أيام لما كنتُ الآن بينكم، وكنتُ من أهل النار. والحال ترَوننني الآن واحداً منكم. وإنسان تلك الجهة المخالفة لنا محتاج أيضاً إلى ما شاهدتُه من طيب المعاملة وحسن المعشر. وإلاّ ما نكون إلاّ هدَّامين لآخرتهم فحسب. وهذا لا يكسبنا ولا يكسبهم شيئاً"(طرق الإرشاد، ص١٦٢).

ويؤكِّد فتح الله في موطن آخر، أنَّ هذا السبيل القلبي، المتسم بالحبِّ والرحمة والشفقة، هو منحَى الخدمة، لا تنحرف عنه قيد أنملة، وهو مقتنع به، عامل على أساسه، وكذا كلُّ من التحق بالخدمة رضي بهذا المنهج سبيلا وطريقا.

وليس أفضل من الوقائع عنوانا على هذا الاختيار والمنحى، فقد أورد الأستاذ ما ينبغي أن نتصَّرف به حيال المذنبين، مِن رحمة وعطف وشفقة، فقال: "إذا ما شملتم قلب إنساننا اليوم بالعطف والحنان، سمعتم صدىً حزيناً منه؛ لأنَّه لن يَسعد إنسانٌ يغوص في الآثام ويخوض في الرذائل. ولا جرم لا يبقى إنسان برضاه ورغبته في هذه الحياة الآسنة، سوى الذين أظلمت قلوبهم، واسودَّت وجداناتهم نهائياً، وتفسَّخ عالمهم المعنوي؛ إلاّ أنه قد زلَّ ووقع فيما هو فيه الآن فلا يجد مخرجاً له. فأنتم بأيديكم الشفيقة الحنونة تدلُّونهم على طريق الخروج الذي يبحثون عنه. فإذا تقرَّبتم إلى هؤلاء بالإشفاق عليهم وبيَّنتم لهم المسائل ضمن رحمة ورأفة موزونة، فسينظرون إليكم وإلى ما تقدِّمونه لهم من مسائل بعين اللطف وإن لم يتقبَّلوها. هذه حقيقة مشاهدة، حيث إنه قد انشرح بالإيمان قلوب مَن لا نتوقَّعه مِن أناس وفيما لا ننتظره من زمان، ولهذا مئات الألوف من الأمثلة"(نفسه).

نعم، مئات الألوف من الأمثلة الواقعية دالَّة على أثر الشفقة على قلوب العصاة ونفوسهم، وكلُّ ألسن الذين سألناهم عن سرِّ نجاح الأستاذ في منهجه أحالونا إلى "قلبه الذي ينبض برقَّة" فائقة، فهو شفوق على كلِّ المخلوقات، بكَّاء لكلِّ ألم قد يلمِّ بأيِّ إنسان، مهما بدا هذا الألم صغيرا أو حقيرا في عيون عامَّة الناس.

وهل فتح الله في مسلكه هذا شاذٌّ، أم هو بدع من البشر؟

كلاَّ، إنه من رسول الرحمة والشفقة والقلب الحنون تعلَّم وتتلمذ، وقد قال في ذلك:

"لقد اعتلت الشفقة الذروة في أخلاق الرسول ﷺ، كما هي في جميع خصاله الأخرى. فلقد أسَّس ﷺ دعوته العظيمة على ركائز جليلة كالشفقة،

وبلَّغها في جوٍّ دافئ من الحنان والعطف. حيث يقول: "إنّما أنا لَكم مِثلُ الوالِد". وكيف لا، وهو الوالد الرؤوف الرحيم الذي قال حين ولادته: "أمّتي... أمّتي..." وبقوله لأمَّته "أولادي" كأنَّه يضمُّ إلى صدره الحنون فلذات كبده، فلئن كان ليعقوب وحيده يوسف عليهما السلام، فكلُّ فرد من أفراد أمَّته يوسفٌ له. نعم، إنه يفتح صدره ليضمَّ كلَّ فرد من أفراد أمَّته فرداً فرداً، كما يضمُّ الأب الرحيم ابنه الوحيد إلى صدره، وبالمقابل كلُّ فرد من أفراد أمَّته يحبه أكثر من حبِّه لوالديه بل حتى لنفسه. بمعنى أنَّ الصفة التي تلازم المبلّغ هي: المحبَّة النابعة من الشفقة والحنان، والسلوك الذي يقابل بالاحترام. هذه الصفة لها امتياز خاص، لأنه لا محلَّ للمحبة والاحترام فيما يخلو من الشفقة والرأفة"(طرق الإرشاد، ص١٥٩).

ولقد وصف الله تعالى رسوله الكريم بوصف يخرس كلَّ لسان، ويُعجز كلَّ بيان، بأنه كان نبيًّا عظيما لأنَّه كان شفوقا عطوفا ليّنا رحيما، فقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، وهذا الوصف يستفيد منه كلُّ مؤمن مسلم حتى يزداد تعلُّقا برسوله الرحيم، فتكبر طاعته له واتباع سنته وسبيله، ولقد قال تعالى مخاطبا جميع المؤمنين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨).

ويطول المقام بتفسير الآيات الواردة في هذا الشأن، كما يطول بتتبُّع مواطن الرحمة والشفقة في سيرة خير البرية محمد ﷺ، والنتيجة التي يجب أن نخرج بها هي أنَّ الرحمة والشفقة عاملان أساسيان في "التأثير الإيجابي على الآخرين"، وفي القدرة على تحويل المخطَّطات والبرامج إلى واقع وحياة وإمكان، ولقد عانت الأمَّة الإسلامية كثيرا، وبخاصَّة في

سنواتها الأخيرة، من التصرُّف بغلظة في العلاقات التي بين أفرادها من جهة، وبين أفرادها وباقي الأمم من جهة أخرى، ثم إنَّ الإعلام راح يلصق صفات "القسوة" و"العنف" والإرهاب" بالإسلام والمسلمين، راصدا لذلك الصور النمطية، ومستغلاً غلطات بعض الأغرار السذَّج ممن لم يفقه في الدين شيئا، فراح يعلن أنَّ "الإسلام جاء ليحصد الأرواح"، و"هذه رسالته المقدَّسة"، فهو "لا ينتشر إلاَّ على حدِّ السيف"، مجتزئا آيات وأحاديث عن سياقها، ضاربا عرض الحائط بحقيقتها ومقاصدها وروحها وأبعادها.

والصواب، الذي لا يشك فيه مؤمن عالم صادق، "أنَّ المبلِّغ هو بطل الشفقة والرحمة قبل كلِّ شيء، لا يتوسَّل لدفع الآخرين إلى قَبول الحقِّ الذي يدعو إليه بالوسائل الخاطئة، كاستعمال القوَّة والخشونة والإكراه؛ لأنَّ استقرار الإيمان بالله في القلوب ليس بهذه الوسائل قطعاً. بل الشفقة في الإرشاد تليِّن القلوبَ وترقِّق الوجدان، وتجعلهما يستأنسان ويتهيآن لقَبول الإيمان بالله وبرسوله ﷺ"(طرق الإرشاد، ص١٥٧).

ولا يزال التاريخ يذكر بداية التسعينيات من القرن الماضي، في الجزائر، يوم كانت الروح الإسلامية تسَّابق إلى قلوب الشباب وتغمرهم بالإيمان والحماس، غير أنَّ شرارة من الكُره والحقد والبغضاء والشحناء كانت كافية وكفيلة بإحراق المحصول كلِّه، ولكَم كان شباب الدعوة يومَها في حاجة إلى نهج الرحمة والشفقة وسعة القلب، ولكَم كان الدعاة المخلصون والعلماء الربانيون ينبِّهون إلى ذلك، ويحذرون من خطر العنف وسوء عاقبته!، لكن -للأسف- قلَّ من الشباب المندفع مَن استمع إلى النداء، وندر منهم مَن قبِل النصيحة، فراحت جماعات من هؤلاء تنحو نحو الفتنة، معطية بذلك أكبر فرصة للمتربِّصين بدين الله، فانقضوا

على بلدنا الوليد، وأخفتوا جذوة الإسلام في وطننا العزيز.

ولقد زارنا في تلك الأيام العصيبة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، إلى جامعة الجزائر، قسم العلوم الإسلامية، وألقى محاضرة في ملأ كبير، ثم عند خروجه أوقفته فتاة لتسأله، فأصاخ لها الشيخ العالِم سمعه، وطرق أمامها رأسه منصتا، وهي تبكي، وتشتكي أنها لم تكن متحجِّبة بدايةً، ثم هداها الله فتحجَّبت، غير أنَّ بعض الشباب المتحمِّس -باسم الدين- راح يضايقها ويلزمها بأوامر شديدة قاسية، مما أفسد عليها حياتها كلَّها.

سكت الشيخ برهة، وهو يتأمَّل في شكواها، ثم قال: "دعوا الشمس تسطع بهدوء، فوالله لو أنها سطعت مرَّة واحدة لعميت الأبصار كلُّها... دعوا الشمس تسطع بهدوء!..."

إنَّ "البراديم كولن" قد استفاد من الدرس، ولم ينجرَّ شبابُ الخدمة إلى أيِّ نوع من أنواع الشدَّة والعنف مهما كان شكلها، رغم أنَّ الظروف أمامهم كانت قاسية، ومبرِّرات العنف لا تعدم مرحلة من مراحلهم، وبخاصة في بدايات المشروع، حين اعتُقل الأستاذ كولن من قِبل قوات الأمن؛ ولعلَّ اختيار الابتعاد عن السياسة والتشبث بالتربية والتعليم، كان حلا ومدخلا حضاريًّا، وكان نتيجة من نتائج هذه القناعة؛ ذلك أنَّ السياسات، والانتخابات، وحمَّى المنافسات... تقتل -غالبا في النفس- الحبَّ والشفقة والرحمة، وتُحيي البغضاء والشحناء والفرقة؛ وكلُّ ما أدَّى إلى ذلك كان حراما بنص الشارع: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾(المائدة:٩١)؛ ولا يجوز من السياسة -في فقه كولن- إلاَّ ما كان موافقا لروح الشارع، مدعاة لحبِّ الله، داع إلى سبل الخير... وهكذا كان

فحواها ومدلولها عند رسول الرحمة محمد ﷺ.

والحصيلة أنَّ من أراد أن يتخذ أسباب الدعوة، ويحقق ثمراتها، فعليه بالحبِّ والشفقة والرحمة؛ ومن أراد أن يجعل من فكره حركية، ومن علمه عملا، فعليه بالحبِّ والشفقة والرحمة؛ ولقد نبهنا رسول الرحمة بذلك في قوله: "ما دخل الرفق في شيء إلاَّ زانه، ولا نزع عن شيء إلاَّ شانه"، وقال لعائشة رضي الله عنها: "مهلا يا عائشة، إنَّ الله يحبُّ الرفق في الأمر كلِّه"(رواه البخاري)... ومَن بلغ هذه الدرجة الرفيعة صحَّ أن يعدَّ من الراشدين.

ثانيا: التخطيط وفن استشراف المستقبل

مِن أبرز الكتب التي أَلِّفت في توجيه الحركات الإسلامية إلى أهمية التخطيط، وإلى دوره في نجاح الدعوة وفعاليتها، كتاب المرحوم سعيد حوى، المعنون بـ"جند الله تخطيطا"، وهو كتاب علمت من بعض تلاميذ الأستاذ كولن أنه طالعه، وقدَّم عليه ملاحظات.

ولقد قرَّر المؤلِّف المرحوم في مقدمة كتابه "أنَّ التخطيط الأعلى للأمة الإسلامية، والتنظيم والتنفيذ المناسبين لذلك، هو أعظم المهمات على الإطلاق" في حقل الدعوة وخلافة الله في الأرض.

بل إنَّ المؤلف -وهو مرجع في الحركية الإسلامية المعاصرة- لخَّص تصوُّره لمكمن إشكال التخلف عند المسلمين اليوم، فقال: "لقد توصَّلتُ منذ أمد بعيد إلى أنَّ سرَّ المعضلة في الأمَّة الإسلامية يكمن في الفرد المسلم... ومعضلة الفرد المسلم، على أيِّ مستوى كان، تكمن في خمسة أمور: الثقافة، الأخلاق، التخطيط، التنظيم، التنفيذ"(ص١٠).

سواءً أَوَافقْنا على الأسباب الخمسة أم خالفنا، فإننا نؤكِّد ما ذهب إليه

الشيخ سعيد حوى من أهمية التخطيط وأثره على مصير الأفراد والأمم، ولقد اعتبرنا هذا السبب ضمن أسباب الرشد في البراديم كولن، ذلك أننا وجدناه حاضرا في كلِّ مؤلَّف من مؤلفاته، وواضحَ المعالم في كلِّ مشروع من مشاريع الخدمة، حتى تملكتنا الحيرة، ونحن نكتب هذا الفصل: من أين نبدأ، وأين ننتهي؟

ولقد عالج الأستاذ التخطيطَ ضمن "قدَر الله تعالى"، وعالجه في سيرة المصطفى ﷺ، وفي حياة الصحابة الكرام عليهم التحية والرضوان، وضمن تجارب الرجال الأفذاذ في الأمَّة عبر مختلف مراحلها الحضارية المشرقة...

ولقد ولج الأستاذ إلى التخطيط من باب العقيدة والتوحيد والإيمان، ومن نافذة الفلسفة والسياسة والتدبير؛ ثم عرض شروطه، وأنواعه، بعدما بيَّن أهميته... ولذا فإننا نعتبر مسبقا أنَّ من بين أبرز سمات البراديم كولن ارتباطه بالمستقبل، وقدرته على التخطيط والتنظيم والتنفيذ.

ولئن حدَّد سعيد حوى الشروط التي ينبغي أن تتوفَّر في أيِّ فرد أو مشروع حتى يتسم بالتخطيط ويوسم به، ومن ثم يطرق أبواب النصرة والتوفيق والتمكين، وعدَّ هذه الشروط ثلاثة: الرسوخُ في العلم، والحكمةُ، والحركيةُ، أي وجود جهة منفذة للمخطَّطات"؛ فإنَّ هذه الشروط اجتمعت في البراديم كولن، وزيد إليها شروط أخرى عديدة، ليس المقام مقام حصرها وسردها.

وسنعرض منطلقات التخطيط لدى الأستاذ، من خلال كتاباته، حسب التصنيفات التي برزت في فكره، ورسمت خطَّ السير في مشاريع الخدمة:

أ – التخطيط والقدَر الجبري:

في مقال بعنوان "القدر الجبري المهيمن في الكون" يغوص الأستاذ

في صفات الله تعالى، وفي بديع صنعه، مؤكِّدا "أنَّ الحاكم المهيمن على الكون كلّه هو القدر والتقدير، والنظام والانسجام، والتخطيط، والميزان والاتزان" مستشهدا بالعديد من الآيات الكريمات، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١)، وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧).

والأستاذ في هذا الغوص يسير على نهج تمثُّل الصفات التكوينية لله تعالى، بمقابل تمثُّل صفاته التشريعية؛ وهذا المنحى متناسق مع محورية أسماء الله تعالى وصفاته في فكر كولن وتنظيره، وفي حركيته وتنفيذه وقيادته، ولذا ينقلنا مباشرة من التخطيط في بديع صنع الله تعالى إلى وجوب التخطيط في تحقيق خلافته ووراثته في الأرض؛ أو بالأحرى إنَّ منطق الكون والوجود يوجب التخطيط، وإنَّ سنن الله تعالى تلزمنا به، فكأننا في حقل الفيزياء الكمومية،[١] التي تثبت للمتناهي الصغر ما ثبت للمتناهي الكبر، في نسق واحد، ومنطق واحد، ونظام واحد.

إلاَّ أنَّ كولن لا ينحو منحى الفيزياء، وإنما يبني نظريته على القرآن والإيمان، وعلى البصيرة والتبصُّر، فيكتشف أنَّ التخطيط في الكون يوجب التخطيط في الحركية، ويقول: "لا شكَّ أننا عندما نقوم بمشروع بناء أو عمل ساعة، فإننا نبدأ أولاً بوضع تصميم وتخطيط بمواصفات

---

١ الفيزياء الكمومية (La physique quantique): تسمية لجملة من النظريات الثورية في الفيزياء، مؤسسة على ثابت بلانك (constante de Planck)، وعلى النظرية النسبية؛ من أشهر منظريها شرودينغر، وفاغنر... وغيرهم. و"تقوم النظرية الكمومية بتقديم تصور غريب عن العالم الذري ودون الذري يصدمنا ويبعدنا عن كلِّ ما ألفناه في الواقع الحياتي، وما تقدمه الفيزياء الكلاسيكية من تصورات. لكنها بالرغم من كلِّ ذلك تنجح إلى حدٍّ بعيد في تفسير حقائق العالم دون الذري، وتعزِّز صحَّتها يوما بعد يوم بتقديم تنبؤات غريبة. لكن كل التجارب العلمية تأتي فيما بعد لتؤكد هذه التنبؤات"

معيَّنة؛ فنبدأ نقدِّر ونحسب كلَّ ما يمكن أن يظهر في المستقبل ضمن هذه المواصفات سلفاً. فلئن كان هذا التخطيط والتصميم في بناء بسيط أو في آلة بسيطة، فكيف يمكن تصوُّر هذه الأنظمة الدقيقة والتوازن الدقيق المحيِّر للعقول بدءً من الذرات ووصولاً إلى الإنسان، دون تخطيط أو منهاج؟ "(القدر، ص١٦).

وسهمُ المقارنة ثنائي الاتجاه، من روعة خلق الخالق إلى المطلوب من الأفراد والجماعات، ثم من أبسط حركيات الإنسان إلى عظيم قدر القادر المهيمن... كلاهما مبني على التخطيط والحكمة والإحكام، ألم يقل رسول الرحمة ﷺ: "تخلَّقوا بأخلاق الله؟"(رواه الأصفهاني).

ب – إنسان التخطيط:

أطلق الأستاذ كولن على رسول الله ﷺ صفة "إنسان التخطيط"، لملازمة هذه الصفة له في كلِّ مراحل حياته الشخصية والاجتماعية، الإرشادية والدعوية؛ ذلك أنه ﷺ يتميز ويمتاز عن غيره بـ"وحدة الفكر والتطبيق، واستخدام التخطيط ومحاربة العنصرة"،[1] وبـ"وحدة الفكر والتطبيق؛ فأيُّ هدف توخَّاه استطاع أن يسير نحوه، وأيُّ فكرة اقترحها استطاع تطبيقها"؛ ولذا جاز لنا أن نطلق عليه اسم "سيِّد المخطِّطين"، إذ لم يعرف التاريخ إنسانا أبعد نظرا منه، ولا أقدر على ربط الماضي بالحاضر، والحاضر بالمستقبل، أكثر من النبي ﷺ، فقد "كان الرسول ﷺ يعرف الأيام المقبلة مثلما يعرف يومه، بل مثلما يعرف راحة يده، وكان هذا كيفية خاصة به".

والملفت للنظر أنَّه ﷺ "لم يكن يملك كومبيوتراً، ولا عقلاً إلكترونياً،

---

١ العنصرة: التجزيئية، وهي معالجة كل عنصر على حده، دون تنظيم ولا تخطيط ولا معالجة شمولية.

ولا هيئة تخطيط، ولكنَّه كان يعطي القرارات الصائبة في التو واللحظة ثم يخطو لتنفيذها... كان يعطي قراراته لمسائل بعُمْر مئات من السنين، ولم يكن يترك أيَّ مشكلة في أي مسألة من هذه المسائل"(النور الخالد، ص٣٧٥).

وإذا كان التخطيط ملكة وسجية عند رسول الله ﷺ، فهو اكتساب ومهارة وتعلُّم لدى غيره، من هنا وجب على المسلمين الحرص على اقتفاء أثره، والتأسِّي به، ومن جملة ذلك: تعلُّم التخطيط، وتعليم التخطيط، والعمل بالتخطيط، وتسطير المخطَّطات، وتنفيذها، وصياغة الأهداف بناء على الغايات... لا بروح مدنية باردة، لكن بأبعاد إيمانية نافذة؛ ويكون التخطيط بناء على هذا المنطلق والتصور نوعا من العبادة، بل من أكثر العبادات فضلا وأجرا ومثوبة عند الله تعالى.

ج – التخطيط في مستوى الفرد:

وصف الله تعالى الذين لا ينظِّمون حياتهم، والذين يسيرون في الدنيا سَبَهْللا، بأنهم فرَطوا عقد أمورهم، وأمرنا سبحانه وتعالى، بل أمر رسوله الكريم بعدم اتباعهم وطاعتهم وقبول مقترحاتهم، فقال جل من قائل: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف:٢٨)؛ يفسر ابن كثير الآية بقوله: "وكان أمرُه فرطا، أي أعماله وافعاله سفهٌ وتفريط وضياع" ثم قال: "ولا تكن مطيعا له، ولا محبًّا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه"(تفسير ابن كثير، نسخة رقمية).

ومن فحوى الآية نستنتج أنَّه على كلِّ مسلم –حتى يكتمل إيمانه– أن يسير وفق هدف ومخطَّط ونظام، وأن لا يتخذ أمره سفها وتفريطا وضياعا، وإلاَّ ضيع معية الرسول ﷺ، وخسِر محبَّته، ومن كان شأنه هذا خسر الدنيا والآخرة. يقول كولن في هذا المعنى، تحت عنوان "الحيطة": "على

obeikandl.com

كلِّ إنسان أن يتناول كلَّ عمل ضمن خطَّة مسبقة وتدبير، وعليه تجنُّب كلِّ شيء لا يؤدِّي في النتيجة إلى فائدة مادية وفضيلة معنوية تجنباً قطعيًّا. فكلُّ محاولة لم يؤخذ لها مثل هذا التدبير منذ البداية تعدُّ عبثاً. والاشتغال بالعبث يدلُّ على نقصان عقل ذلك الشخص وطفولة عقليته" ثم "إنَّ اتخاذ الحيطة والتدابير اللازمة رأسمالٌ كبير للإنسان الذي يأمل الوصول إلى مبتغاه"(الموازين، ص١٦).

وينتظر من مثل هذا التأصيل للتخطيط وأهميته، أن يتحول إلى منهج تربويّ متكامل، سواء في المدارس التابعة للخدمة، أم التي تستقي منها الخبرة والتجربة، فهل من مواد تعلِّم التخطيط؟ وهل من مقرَّرات وبرامج للتخطيط؟ وما حال التخطيط في كلِّ مشاريع الخدمة؟

هذا ما يجب الجواب عنه بالتفصيل، إذا ما رمنا التحليل ضمن نموذج الرشد، المتتبع للعلاقة بين التنظير والتنفيذ، وهذا الذي لم نجده مكتوبا في المشاريع التي زرناها، وكأنه ترك للعلاقات البشرية، ولجهود الأستاذ ضمن نظام الزمر؛ غير أنه ولا شك نقص يجب تداركه، وضعف يجب جبره.

د – التصرف الحركي والتخطيط المحكم:

بالتخطيط تنتصر الدعوة، وبغيره تفشل لا محالة "ونجاح الدعوة في ظل هذه الشروط يستند قبل كلِّ شيء إلى خطَّة محكمة والتصرف والحركة ضمن هذه الخطة. وعلى هذا فقدر أي شخص [أو أي مشروع] وقيمته تتناسب مع مقدار نجاحه، ويتناسب نجاحه مع صحَّة القرارات التي اتخذها قبل البدء في مشروعه وعمله تناسباً طردياً"(الموازين، ص١٦).

وفي مقال "الأجيال المثالية" يبيِّن كولن "أنَّ العلل الاجتماعية، وأمراض

الأمَّة الجسيمة، والآفات الطبيعية، وما يشبه هذه الأزمات التي تستشري في جسد المجتمعات لا تعالج بتدابير يومية قصيرة الباع. فإنَّ معالجة أزمات واسعة الآثار كهذه منوطة بشيوع البصيرة والعلم والحكمة في المجتمع" فإذا ما توفَّرت هذه الشروط أمكن حلُّ أكثر المعضلات، ولا يتم ذلك إلاَّ بـ"بتحريك قسم من مصادر قوَّة اليوم لحساب المستقبل" وحساب الغد مع اليوم ليل نهار، قياما وقعودا، واستعمال الإمكانات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغد، فحلُّ "عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتحرُّر من قيود الزمان... إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل، والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه"(ص١٠٩).

والحق أنَّ القضية الكبرى اليوم للأمَّة الإسلامية هي التفكير في المستقبل، ولذا "فلا شكَّ في أنَّ مِن واجب كلِّ مثقَّف أن يفكِّر ملياً في مستقبل وطننا وشعبنا"، غير أنَّ القليل النادر منهم مَن يقوم ويقعد "منذ سنوات مديدة حالمين بالمستقبل ومضطربين، على أملٍ بأنَّ الطرُق الوعرة ستوصل إلى الممهَّدة في يوم آت"، وهذه القلة المباركة هي أمل الأمَّة وغدها المشرق الوضاء، وهي طاقتها ومحرِّكها "فترى إحدى يديهم ورجليهم منشغلة بالعمل اليومي، وأخراها منشغلة في تجهيز الخطط والبرامج للمستقبل"(صرح الروح، ص١٠٤).

هـ - "خَضِرُ" التخطيط:

القارئ لمؤلَّفات فتح الله يقتنع أنه كان "خضراً" في التخطيط، عارفا بالأسباب، معطٍ للزمن قدره ومقداره، غير مستعجل في شيء، واثقا من فكره وفعله، وذلك من منطلق ارتباطه بالله العالِم الحكيم، مراجعا لكل

خطوة يخطوها، باعتبار بشريته وبشرية الناس من حوله، الذين هم حقل التحقيق وميدانه.

ولقد تجاوز الأستاذ مرحلة التنبيه إلى "أهمية التخطيط وضرورته"، وهي مرحلة أساسية لا بدَّ منها؛ إلى مرحلة "التأصيل الشرعي للتخطيط، والحكم بوجوبه شرعا وعقلا، على الأفراد والتجمعات، وعلى الأمم والمجتمعات"، ثم راح يُنزل الحكم إلى ساحة الدفع الحركيّ الحضاريّ... فكان منذ الستينيات يرسم الخطط ويصوغ البرامج، ويقترح الغايات والمنطلقات والأهداف، بل وحتى الوسائل والمناهج والآليات؛ ولم يقتصر على هذه المرحلة، لكنه أسقط هذه الخطط على محكِّ الزمن والواقع والناس، وتابع كلَّ نبرة وكلَّ حركة، كأنه يشاهد دقَّات القلب على شاشة طبية حسَّاسة، وكان في كلِّ منعرج أو تحوُّل ذي بال يتدخَّل بفكره الثاقب الوثَّاب، فيصوِّب ويعدِّل في الميدان أولا، وقد يضطر إلى التعديل في المخطَّط ثانيا؛ حتى إنه أحيانا يصطدم بعسر الفهم لدى الناس، ويعاني من رفضهم لمخطط معيَّن، مثلما وقع له في مخطط تحويل بيوت الطلبة إلى مدارس نظامية... إلاَّ أنَّ "خضر التخطيط" لا يني ولا ينثني، بل يغيِّر في الأسلوب والطريقة، وفق مبدأ "التصريف"، إلى أن يحصل الفهمُ الصحيح، والتطبيق الموفق.

وإنَّ مجموع رجال الخدمة ونسائها، بعد أمد، وثقوا في رائدهم، وحمَّلوه كلَّ مصيرهم، وصدَّقوه في كلِّ لفتة، وأبدوا استعدادا غير مشروط لتنفيذ ما يأتي به من مخطَّطات، حتى إنَّ الواحد منهم -وهو الناشط في ساحة الواقع- مهما بلغ مستواه الفكري والثقافي والاجتماعي، لا يكلِّف نفسه عناء السؤال عن التصوُّر العام، وعن تفاصيل المخطَّط، ولا مسؤولية

مناقشة الخطط والنظر فيها، بل يحمِل نفسه على إتقان الجهد في العمل، والخدمة في الثغر الذي صوِّب إليه.

ولقد تلمَّست هذه الصفة القيادية لدى الأستاذ، وهذه الصفة الانقيادية لدى كلِّ فرد في الخدمة، من خلال الجمع بين المسطور والمنظور، بين المؤلَّفات والمقالات والأفكار والطروحات من جهة، والمشاريع والمؤسَّسات والحركات والتصرفات من جهة أخرى... فلمَّا سألت عن بعض المناصب لبعض قيادات الخدمة، أجِبت أنَّ للأستاذ قوة إدراك عجيبة في معرفة حقيقة معادن الرجال، فهو ببصيرة نفَّاذة يختار القائد والجنديَّ، ويضع الرجل المناسب في مكانه المناسب، متفاديا بذلك علامات الساعة التي تظهر من حين لآخر في بعض بلاد المسلمين، بتولي غير المؤهَّلين مناصب ليسوا أهلا لها، يقول المصطفى عليه السلام: "إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(رواه البخاري).

ولكلِّ مرحلة من المراحل التي ذكرتُها شواهد من تاريخ فكر الأستاذ، ومن تاريخ حركية الخدمة، قد يصعُب تعدادها ويطول، ولكن يكفي أن نورد للتمثيل لا للحصر، ما أورده هو بنفسه في "النور الخالد"، مقدِّرا لعظمة محمد عليه السلام في التخطيط والتنفيذ، معترفا بضعفه هو، بكل تواضع، فقال: "ولقد حاولت بنفسي، ولم أستطع، إقناع أقرب الناس إليَّ بنظام التربية المثلى، التي وضعتُها، والتي استلهمتها طبعا من رسولنا ﷺ تمام الإقناع؛ دعوت إلى الفضيلة حتى تعبت، ولكني لم أستطع حمل الناس عليها"(ص٧٠).

مِن هذا النص نستتنج أنَّ فتح الله "وضع مخطَّطا للتربية والتعليم"، ثم "عمل على إقناع الناس به"، وبدأ بأقرب الناس إليه، وهو قد استلهم المخطَّط من سيرة المصطفى عليه السلام، ومع أنه ذكر هنا أنَّ الناس لم يقتنعوا،

openkandil.com

إلاَّ أنَّ المتجوّل في مشاريع كبرى، من مثل: مدارس فاتح، وبرج، وجوشكون، وأنافان، وفام... وكذا جامعة فاتح، وذروة... وغيرها، يتيقن أنَّ المخطَّط آتى أكله، وأنه اليوم صار ظاهرة عالمية، حيث تنتشر خارج تركيا عبر العالم اليوم أكثر من ١٢٠٠ مدرسة، من الطراز الرفيع، دع عنك المدارس وبيوت الطلبة والمشاريع التربوية داخل تركيا، من شرقها إلى غربها، من شمالها إلى جنوبها.

حقا إنَّ البراديم كولن، ليس فكرا مجردا حبيس النظر والنظريات، ولا ممارسةً فجة وليدة التهور والمحاولات؛ لكنه جمع بين التخطيط والتنفيذ، وقدرة على وضع مخطَّطات للمستقبل، باعتبار ظروف العصر، وبالحفاظ على الثوابت والمنطلقات، والليونة والمرونة في الوسائل والآليات...

الأسباب الفنية الجمالية

أولا: الفن، المفتاح السحري للحضارة

كانت البداية من مدرسة "برج"، أو ما يعرف في تركيا بـ"بورج كوليجي"[1] يوم زرتها مع وفد من الأصدقاء، ونحن حينها نتلمَّس معالم الخدمة، ونحاول اكتشاف خصائصها، فقادنا القدر إلى هنالك، ولقد تملَّكنا العجب، وغمرَنا التقدير، لكلِّ ما شاهدناه من نظام، وانضباط، وتخطيط، ووضوح للرؤية، وجمال... ولكنَّ الشيء المختلف حقًّا هو وجود "ثانوية فنية" داخل المؤسَّسة، وهي الأولى في تركيا، مما حرَّك فينا جملة من العواطف والأحاسيس والأفكار، ونحن نستحضر تلكم الصورة السافلة للفنِّ في أرجاء العالم، من جهة؛ وذلكم المستوى المتدني للجمال في بيئتنا ومحيطنا التربوي والمدني، من جهة ثانية.

(١) عنوانها في الإنترنت: (http://www.burcistanbul.com/index.aspx).

ولم أكن أعلم يومها أنَّ الأستاذ فتح الله قد كتب شيئا عن الفن، أو قال شيئا معتبَرا في خصوص الفن والجمال، وإن لم أستبعده باعتبار التناسب بين السبب والنتيجة، أي بالنظر إلى قانون العلية والمعيَّنية. والعادة في النموذج الإسلاميِّ التقليديِّ في عصرنا أنَّ العالِم والشيخ والمفكِّر لا شأن لهم بالفنِّ والجمال، وأنَّ الفنَّان إنسان أقرب إلى القاذورات والانفساخ منه إلى الفعل الحضاريِّ البنائي التربوي. ولقد وفِّق مالك بن نبي أيما توفيق في اعتباره "التوجيه الجمالي" مدخلا أساسا للحضارة، جنبا إلى جنب مع المداخل الأخرى (مشكلة الثقافة، ص٧١). وما أروع مقولة علي عزت بيجوفيتش في هذا الصدد: "العلم دقيق، أمَّا الفنُّ فصادق"(الإسلام بين الشرق والغرب، ص١٤١).

وتوالت الأيام، فكنتُ كلَّما زرت مؤسَّسة من مؤسَّسات الخدمة، أو التقيتُ فردا من أفرادها، أو جماعة من جماعاتها، سُحرتُ بالأداء الفني والجمالي والذوقيِّ، في كلِّ التفاصيل، حتى صرتُ أسيرًا لا أملك سوى الإعجاب، ولا أجد أفضل وأصدق من القول: "ما شاء الله لا قوة إلا بالله".

ثم تبين لي بعد أمد، أنني لست الوحيد الذي نحا هذا المنحى، بل هو انطباع كلِّ زائر دخل تركيا من باب الفكر والواقع. من هنا، ولهذا كلِّه، شرعت في البحث عن "الفن" و"الجمال" في فكر الأستاذ فتح الله، متسائلا عن دورهما في تحويل هذا الفكر إلى واقع، معترفا أنَّ هذا البحث ليس متعمِّقا، وإنما هو موفٍ بغرض السياق، داعيا إلى بحوث أكثر تخصُّصا في منظومة الفنِّ والجمال في "البراديم كولن".

والحقُّ أنَّ فتح الله لا يلبث أن ينبِّه إلى ضرورة الفنِّ والجمال في كلِّ

مقال يكتبه، حتى إنَّه عدَّ من أبرز الصفات الثمانية لـ"ورثة الأرض"، ما سمَّاه "بالوصف السابع، وهو "فكرنا الفني"(صرح الروح، ص٤٤). وتأسَّفت كثيرا أنَّ الأستاذ لم يفصِّل القول -في هذا المقال- حول مقصده من الفكر الفني، فضاع منا الخير الكثير. لكنَّه ما لبث أن أضاء سماءنا بمقالة عنوانها "مِن الفوضى إلى النظام"، وهي غاية في تحليل ظاهرة الفنِّ، وضرورتِه لإقامة صرح حضاريٍّ ذي شأن.

ونقطة الانطلاق كانت مع البحث والتنقيب تحت عنوان "خلافة الله في الأرض"، والنتيجة أنه "منذ عصور والناظر إلى مجتمعنا يرى أنقاضاً وأنكاثا من حيث الأخلاق والفضيلة والعلم والفكر. فما زال المجتمع يبحث عن نظام وفكر بديل في التربية والفن والأخلاق. والصحيح هو أننا بحاجة إلى إرادات فولاذية وأدمغة أصيلة تحتضن الوجود بأعماقه جميعاً، والإنسان برحابه الدنيوية والأخروية، وتفسرهما، بل وتتدخل في الأشياء بعنوان خلافة الله في الأرض"(صرح الروح، ٩٥). ومدلول هذه العبارة هو البحث عن "نموذج بديل"، بناء على الرؤية الكونية لخليفة الله في الأرض، يصل بين الأعمدة الثلاثة البارزة للحضارة الحقة "التربية، والفن، والأخلاق". والناظر في واقع المسلمين اليوم ينتهي إلى ملاحظة أنَّ هذا النموذج لما يوجد بعدُ، أو أنه وجد ولما ينضج بعدُ.

والمصدر الوحيد للفن -في هذا النموذج- هو "مخافة الله تعالى" والنظر إلى بديع صنعه "نعم، إن تأمّلَ الوجدانُ لحظةً واحدة في كتاب الوجود فأبْصَر، لشهِد في كلِّ مكانٍ النظامَ والانسجام فوّاحاً، وغنىً في الجمال والمعاني مدهشاً. ولا تمسُّ الحاجة إلى تحسُّس شديد الرهافة، فالقلب المشحون بشيء من المشاعر يحسُّ كلَّ لون وصورة وصوت

ونَفَس شعراً ونغماً متلوناً بألوان اللانهاية، في الرعد المهيب كما في تغريد الطيور وزقزقة العصافير، وفي وجوه الأزهار الفاتنة كما في أضواء صفحة السماء الساحرة. ومن يدري ما يشهده الذين يتقدَّمون خطوة إلى الأمام في فيزياء الوجود وكيميائه وحياتياته وفضائياته"(صرح الروح، ص١٠٠).

وإذا اعتمدنا لغة "الرؤية الكونية" فإننا نقرِّر -بناء على فكر كولن- أنَّ الفنَّ السمج، والجمال القبيح، واللانظام المقنَّن، والذوق الشاذ... كلٌّ أولئك نتيجة رؤيةٍ لله والإنسان والكون، توصف بأنها رؤية اختزالية ظاهرية عقيمة.

وما أبدعَ الربط بين بواطن الإنسان القلبية وظواهره الجمالية "فمن المعلوم أنَّ في كلِّ ثغرة من ثغراته، كالحرص والحقد والكره والغضب والعنف والشهوة، بُعدٌ موجيٌّ مختلف القوَّة من نزعات التخريب وميول العبث ودوامات الفوضى"(صرح الروح، ص١٠١).

ولكن، هل المستوى المرتفع من الذوق والفنِّ والجمال والنظام، فطريٌّ في بني البشر؟ أم هو قدَر على بعض الأمم والمجتمعات دون غيرها؟ أم هو غير ذلك؟

يجيب كولن بصراحة ووضوح أنَّ الأمر كسبيٌّ جهاديٌّ تربويٌّ، إذ "لا بدَّ أن تكون التربية التي تسمو به من درجة إنسان "بالقوَّة" إلى إنسان "بالفعل"، ذات أفقٍ لاهوتي ومحورٍ وهبي. فينبغي أن تغذى ثقافتنا الذاتية بورود حدائقنا وعصارات جذور معانينا وأرواحنا" حتى نبلغ مبتغانا من الفن والذوق الرفيع في كلِّ شأن من شؤون حياتنا.

والفنُّ لا يُستورد مع البضائع والأفكار، وإنما هو ذاتيٌّ مِلِّي، وأيُّ محاولة لمسخ مجتمع ما بفنِّ منظومة أخرى، أو برؤية كونية مختلفة، هي

obeikandi.com

محاولة لألقاء ذلك المجتمع في هاوية سحيقة من التخلف والفوضى والتبعية والذل.

ولا يفوت كولن -ضمن نموذجه- أن يغرس قيم الجمال والذوق الرفيع في أفراد الخدمة، عبر رسائله المشفَّرة، في مجلة "الرشحة" أو في غيرها، مثل "حراء"، و"زمان"... والبديع أنَّ المحتوى والشكل قد تآلفا لإعطاء صورة نيرة للفن عبر صفحات هذه المجلات والجرائد.

ولقد تتبعت أوصاف الفنِّ في هذه اللوحات والرسائل المشفَّرة، فاكتمل عندي عقد به صدف، أنتقي منها للقارئ أمثلة، وهي:

- الفنُّ من أهمِّ الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر.
- الفنُّ مثل مفتاح سحريٍّ، يفتح الكنوز السرية المكتشفة.
- الفنُّ طائر فكريٌّ يأخذ الإنسان في سياحة إلى فسيح بديع خلق الله تعالى.
- الفنُّ من أهمِّ العوامل التي تحافظ على المشاعر الإنسانية.
- الفنُّ هو اللوحة الأولى التي تستطيع تصوير قدرة ابن آدم وعمقه.
- الفنُّ هو الذي جعل الأرض معبدا للجمال الإلهي.
- يُظهر العمل الحقيقيُّ نفسه بالفنِّ.
- من لا فنَّ له شبه حيٍّ، وشبه ميِّت.
- الفنُّ هو الذي يجعل الحديد أغلى من الذهب، والنحاس أثمن من البرونز...
- الأرواح الخالية من الفنِّ والمنغلقة دونه يستوي وجودهم وعدم وجودهم... الخ.

ولا تغادر الذهنَ تلكم اللوحة الزيتية المعبِّرة لرجل مهموم، والكلمات الشعرية تهزُّه هزا، وتدعُّه دعًّا، ليستفيق، وينزع عنه نظاراته السوداء، فينطلق في عالم الإيمان الرحب، بالنظر إلى جميل صنع الرحمن، تحت عنوان "الإنسان والجمال"، وبجوار تلك اللوحة، يقول كولن معلقا عليها:

"أنعم يا إنسان النظر،

ومِن سجن نفسك تحرَّر،

ولوحات الجمال تشرَّب،

ودع قلبك يطر فرحا،

وروحك يرقص طربا...

واستشرف جمال "الجميل" في كلِّ جمال،

تطمئنَّ نفسك،

ويزدد إيمانك،

وإلى ربِّك تغدُ إنسانا،

خالصا في إنسانيتك" (ألوان وظلال، ص٨٤).

ولقد شهد شباب الخدمة، وتلاميذ الأستاذ، الملازمون له في خلواته وجلواته، أنه لم يدعُ إلى الجمال والفنِّ بقلمه وحبره فقط، بل عاشه في كلِّ نبرة، ومع كلِّ زفرة، وعند كلِّ نظرة، حتى إنه غالبا ما أرهقهم برهافة حسِّه، وأورثهم شعورا متوتِّرا تجاه كلِّ كلمة ينطق بها، أو سكتة يسكتها، أو إيماءة يومئها... ولعلَّ هذا القدر الرفيع من الإحساس الفني والجمالي، ومن رهافة الحسِّ والذوق، هو من أبرز الأسباب التي ساهمت في تحويل أفكار الأستاذ إلى واقع، وصاغت مخطَّطاته ومشاريعه بشكل يعجز القلم

عن وصفه، مشاريع هي في روحها ربانية، إيمانية، وفي ظاهرها فنية، ذات أجود المقاييس العالمية، فلا تعارض بين المخبر والمظهر، إنما هو التكامل والتعاضد والتوازن.

ومما ذكِر في هذا السياق أنَّ الأستاذ يحبُّ مشاهدة الأفلام الوثائقية، وبخاصَّة ما كان منها حول الطبيعة وجمالها، وهو أوان مشاهدته يتأثَّر، ويفرح، ويحزن... وقد تحرّكه لقطة أسدٍ افترس غزالة مثلا، فيبقى الأيام الطويلة -بعد ذلك- وهو يفكِّر فيها، حتى إنه ليقترح مخططات لهذه الغزالة لِتنجو من مخالب الأسد، فيصف المقترح لمن حوله من الشباب... والحال أنَّ الغزالة قد أكلت منذ أمدٍ، وإنما هو فعل المشاعر والأحاسيس الصادقة في قلب رقيق رفيق (جمال ترك، نوزد صواش).

ولا يزال هؤلاء الشباب يذكرون يوم اقترحوا على الأستاذ، وهو في أمريكا، تغيير أثاث صالون الاستقبال، وقد بلي وتقادم، والزوار في هذه المرحلة قد تكاثروا نوعا وعددا، فمنهم علماء كبار، وبعضهم وزراء، وآخرون سفراء، وشخصيات عالمية معتبرة... الخ.

قبِل الأستاذ المقترحَ على مضض، لكن أمارات الحزن بدت في تقاسيم وجهه، فلمَّا سئل عن السبب، قال: "لقد ألفتُ هذا الأثاث، وألفني، وإني معترف له بخدمة كبيرة، ويحزنني أن يغادرني أو أستبدل به غيره... بيني وبينه إلف وحب، وحظ من الذوق والجمال لا ينكر"!

ولهذه الحال أمثلة كثيرة، لا تعلِن إلاَّ عن حقيقة واحدة، هي أنَّ الفنَّ والجمال والذوق إكسير الحياة، ومفتاح سحريٌّ، وطائر فكريٌّ، لا غنى عنه في مشروع، أو فكرة، أو حركة؛ وهو في "البراديم كولن" سبب من أسباب الرشد والنضج الفكري والحضاري والحركيّ.

ثانيا: الأدب والبيان والشعر

الأدب والبيان والشعر أزهار ضاربة جذورها في أرض اللغة، وهي أنهار ووديان نزلت من السماء رحمة ربانية، حيث كانت مودَعةً المزنَ والسحب الثقال... فإذا كانت الفروع نعمةً، فالأصول نعمة النعمة، ولهذا فاللغة -التي هي الأصل- "نعمةٌ كبيرة من النعم التي أسبغها الرحمن الرحيم على الإنسان. فبها يتغنى الإنسان بإنسانيته، وبها يتوجَّه نحو العلم، وبها يعيش في الأجيال القادمة. لذا فهل يدرك من أفسد هذه اللغة مدى الجريمة التي ارتكبها"(الموازين، ص١١٢).

واللسان هو آلة اللغة ومبعثُها، لذا وجب صونه من كلِّ ما يشينه، من ثرثرة، أو كلام سفيه، أو سبٍّ، أو حتى كلام غير موزون، ذلك أنه "لا ترتفع قيمة الإنسان وقدَرَه بطول كلامه، بل بمدى فائدة هذا الكلام، بل على العكس فالشخص الذي يتحدَّث على الدوام سيقع في أخطاء كثيرة لا سيما إن كان حديثه يتناول مواضيع فكرية دقيقة أو مواضيع تتطلب الاختصاص"، و"لقد كان شعار قلَّة الكلام شعاراً من شعارات الناضجين" (الموازين، ص٥٦-٥٧).

فإذا ما التزم الإنسان بآداب اللسان، وصان كلامَه من كلِّ شائبة، وقدَّر قيمة اللغة وقدرها وشرفها، وجب عليه الاعتناء -بعد ذلك- بالجودة والإجادة، وبالأدب والبيان، وبفنِّ الخطابة والخطاب؛ حتى تتحوَّل كلماته إلى سيول من الماء الرقراق، تَسقي القلوب، وتُنعش الأرواح. وبخاصَّة إذا كان هذا المتكلِّم واعظا، أو مفكِّرا، أو قائدا، أي له مكانة ذات اعتبار...

وأوَّل أسرار نفاذ الكلام أن يُعرف المخاطَب، وتُعتبر أحواله، فعلى المبلِّغ أن "يتفقَّد أحوال مخاطبه عن كثب"، قبل أن ينبس ببنت شفة، فأيُّ

امتعاض أو إشارة خاطئة أو كلمة نابية "ربما تكون سببا لتنفير الناس"، فهل من خسارة أكثر فداحة من هذه؟ "وسنتحمَّل جميع المسؤوليات في الآخرة إن كانت نابعة من أحوالنا وسلوكنا".

وواجبٌ أن نتنبه إلى أسلوب القرآن الكريم أولا، كيف ينفذ إلى القلوب بلا تأشيرة، فيُلينها ويُذيبها في مساحات وأكوان "لا إله إلا الله"، وهو الذي يوصف بكونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾(الزمر:٢٨)؛ وقال جلَّ من قائل في حقّه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾(الرعد:٣١)، وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾(الحشر:٢١).

كما يجب أن ننظر في أسلوب أسوتنا محمَّد ﷺ، ذلكم الأسلوب البليغ الحكيم "تأمَّلوا، كيف كان الرسول ﷺ، يبلّغ بأسلوب لا يشعر معه المخاطَب أنه غارق في الإثم"(طرق الإرشاد، ص١٠٦). كيف لا وقد قال عنه ربُّ الجلال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾(النجم:٣)، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، فلم ولن ينطق لسان، من لدن آدم ﷺ إلى أن تقوم الساعة، بأفضل مما نطق به أبلغ البلغاء، وأفصح الفصحاء، وأحكم الحكماء، محمد ﷺ.

يدرك فتح الله، من أوَّل وهلة، أنَّ الأدب رسولُ الفكر والحركة، فيعتني به، ويدرسُه، ويدرِّسه، ويتذوَّقه، وينتجه... وقليل من المعتنين بفكر الرجل -من غير العارفين بالتركية- يعلمون أنه كان يكتب في مجلة أدبية مقالاتٍ ناصعةً، ذات جواهر ولآلئ نفيسة، وعنوان هذه المجلة هو: "الغيث".

فلم يمارس فتح الله الأدب للأدب، بل مارسه معراجاً لأداء رسالة مقدَّسة، فهو يقول: "والكلمة أهمُّ واسطة لانتقال الأفكار من ذهن إلى آخر، ومن قلب إلى آخر. والذين يُحسنون استعمال هذه الواسطة من

أرباب الفكر يستطيعون جمع أنصار عديدين للأفكار التي يريدون إيداعها في القلوب وفي الأرواح، فيصلون بأفكارهم إلى الخلود. أمَّا الذين لا يُحسنون هذا ولا يستطيعونه فإنهم يقضون أعمارهم في معاناة فكرية ثم يرحلون عن هذه الدنيا دون أن يتركوا أثراً فيها"(الموازين، ص١١٤).

وهل كان فتح الله إلاَّ رائدا في الأدب، من الطراز الأوَّل؟

إنَّ مَن يطالع مقالاته المختلفة بعناية، يسْمُ بروحه إلى علياء الفكر والفنِّ والأدب الرفيع؛ ومِن عجب أنها تُرجمت، مع أنَّ كلَّ نصٍّ ترجم يضيع منه بعضه، ولكن ما بقي من هذه المقالات كان كافيا لإعطائنا صورة قريبة إلى الكمال عن بيان الرجل وبلاغته، وإني لأتساءل دائما: ترى، كيف يكون أدب الأستاذ باللغة التركية؟ وكيف يتلقاه المتذوِّق للتركية؟ وبخاصَّة أنني طالعت "النور الخالد"، المتميز بفكره الأخاذ وأسلوبه النفاذ، فقيل لي: إنَّ أصله دورس مسجدية سمعية، أفرغت من أشرطة، ثم ترجمت إلى لغات عدَّة، بعدما طبعت بالتركية... فسبحان الذي حَبَا فتح الله هذا الأدب الفريد.

نعَم، قد تُقدَّم أفكار سامية بأدب هزيل، فتضيع؛ وقد تُعرض أفكار رديئة بأدب رفيع، فتُضِل. والواجب هو "تقديم الأفكار السامية والمبادئ السامية بأسلوب بليغ، له قدرة النفوذ إلى الأذهان، وتحريك القلوب وإثارتها"(الموازين، ص١١٥).

ويقف الشكل في مواجهة المحتوى عند كثير من المدارس النقدية المعاصرة، فمنهم من يقدِّم هذا، ومنهم من يدافع عن أولوية ذاك، لكن فتح الله يرى في كلٍّ منهما أساساً لا غنى عنه:

"فلو لم يكن الأدب موجوداً ما كان بإمكان الحكمة أن تأخذ مكانها

الحالي، ولا الفلسفة أن تصل إلى الأيام الحالية، وما كان بإمكان الخطابة أن تؤدي دورها"، هذا عن قيمة الشكل وأهميته.

"ومن جانبها قامت الحكمة والفلسفة والخطابة، كلٌّ من زاويتها ومن ساحتها بتقديم ثروتها كرأسمال ومادة لا تنتهي للأدب مما أكسبته عمراً مديداً وخلودا"، وهذا عن شأن المحتوى وقدرهً.

ولا بدَّ من الاعتراف مع ذلك أنَّ الأدب جمال وفنٌّ ذلك أنَّ "الأديب كالفنَّان، يبحث دوماً في ألوان الكون وخطوطه وأشكاله عن نفسه. وفي اللحظة التي يجد فيها ما يبحث عنه ويعبّر... عنه يكسر قلمه ويرمي بفرشاته ويغيب بذهول وإعجاب عن نفسه"، و"الأدباء والشعراء بترنمهم بالجمال الباطنيّ والظاهريّ، أي الجمال في الأنفس وفي الآفاق يشبهون عازفي الناي"(الموازين، ص١١٥).

ومع كون الفن والجمال إكسير الأدب، إلاَّ أنَّ "العنصر الأساسي في الأدب هو المعنى. لذا يجب أن تكون الكلمات المذكورة قليلة وقصيرة وغنية بالمعاني". هنا نجد فتح الله قد انتصر للمحتوى على حساب الشكل، لكن بغرض الدفاع عن حقيقة الوجود، وعن الإيمان بربِّ الوجود، فالأدب لا يبحث عنه عند الأدباء واللغويين، بقدر ما يطلب "عند المفكّرين من ذوي القلوب الملهمة التي تحيط بالوجود وتعرف كيف تتسع قلوبها للوجود كلّه، وذوي الخيال الواسع الذين نجحوا في رؤية الدنيا والآخرة وجهين لحقيقة واحدة، والذين يملكون إيماناً عميقاً وفكراً تركيبياً قوياً"(الموازين، ص١١٦). أي أنَّ مصدر الأدب هو الرؤية الكونية الشاملة المتزنة، الكاملة المعاني والمعالم.

وعن الرؤية المتكاملة الجامعة بين الشكل والمحتوى يقول فتح الله:

"عندما لا تتمُّ التضحية بالشكل من أجل المعنى، ولا المعنى من أجل الشكل في النظم، بل على العكس عندما يرتبطان مع بعضهما ارتباط الروح بالجسد، يصل آنذاك إلى مستوى من التناسق والتلاؤم يحبه كل وجدان"(الموازين، ص١٢٠).

وينبغي أن لا يغيب عن الأذهان أنَّ فتح الله شاعر: كتب الشعر، وكتب في الشعر، وكتب عن الشعر؛ له مقطوعات فنية جميلة، مبثوثة في كتبه ونتاجه الفكريّ، وجُمع له ديوان شعر بالتركية، يعترف له الأدباء بالإجادة والعمق؛ ثم إنَّ فتح الله -مع ذلك- عشق الشعراء الكبار وسار على خطاهم، من أمثال: جلال الدين الرومي، ويونس إمره، ومحمد عاكف، ونجيب فاضل... ولطالما استشهد بجميل أدبهم وشعرهم، الذي يحفظ منه الكثير، ولطالما قام شارحا لمقطوعة من فنهم وإبداعهم.

وفي تقديم أورخان محمد علي لكتاب الموازين، أشاد بالجوانب المختلفة والمتكاملة من فكر فتح الله، فقال: "هذا الكتاب عبارة عن نظرات في مختلف شؤون الفكر والحياة والمجتمع. يقترب فيه المؤلف من هذه الشؤون مرَّة بنظر العالم... ومرَّة بنظر المفكِّر... ومرَّة بروح الشاعر... ولكنه لا ينسى في أيِّ مرَّة من هذه المرَّات أنَّ أبرز صفة عنده هو أنه داعية يدعو إلى الله تعالى على بصيرة... "(ص٨).

لي صديق مرتبط إلى حدِّ الهوس بما يكتبه فتح الله، فهو يتتبع المقالات التي ننشرها تباعا في موقع "فيبكوس"، وهو كلَّما قرأ مقالا كرَّر قراءته العديدَ من المرات، ثم بعد ذلك، غالبا ما يهاتفني، ويعبِّر لي عن أشجانه ومكنوناته، وهو في كلِّ مرَّة يذرف دموعا، لا يخفيها ولا يكاد يقدر على ذلك؛ فيسقي ما حوله ومن حوله، وما ذلك -حسب

obeikandi.com

رأي صديقي- إلاَّ للصدق الذي يلمسه، وللأدب الذي يسحره... وليس صديقي هذا بالأديب ولا بالناقد، ولا بالذواقة للأدب بمعناه الأكاديمي، ولكنها الفطرة تخاطب الفطرة، والجمال يحل في الجمال، فيولد على إثرهما المعنى والحقيقة والخلود.

وما كان "للبراديم كولن" أن يبلغ حدَّ الرشد والسموِّ الحضاري لو أنه أعرض عن هذا الجانب الفنيِّ الأدبيِّ، فهو لذلك وبذلك يقال عنه إنه مشروع راشد، ودافع إلى توليد الحركية في مختلف مجالات الحياة: من التربية إلى الاقتصاد، ومن الفن إلى الصناعة... ذلك أنَّ الصحبة، وهم شباب الخدمة في هذه المشاريع، دائما تجدهم ينتظرون مقالات الأستاذ، وغالبا ما تأتيهم أسبوعيا، فيجلسون في "مجالس الصحبة"[1] حول كؤوس شاي تركي أحمر، ويطالعون هذه المقالات، فيتأثرون بها، ويتأملون عمقها، ويحللون محتواها... ثمَّ يركِّبون -بعقلهم التوليديِّ- مركَّبات تطبيقية لإنزال ما قرؤوا على أرض الحياة والواقع، كلٌّ حسب تخصصه واهتمامه وقدرته... وهكذا تتحوَّل أفكار الأستاذ مشاريع حضارية في أزمان قياسية، ولا ريب أنَّ للأدب دوره الأساس في هذا التحوُّل، وفي ذلكم الرقيِّ.

١ مجالس الصحبة: من أبرز الطرق لتحويل فكر الإستاذ إلى مشاريع؛ وهي غالبا ما تعقد أسبوعيا، في بيت أحدهم، أو في صالونات المشاريع، المخصصة لذلك. ولقد استعرنا المصطلح، ووظفناه في مشروعنا، وأسسنا ما يعرف بمجلس الصحبة، التابع لمكتب الدراسات، ولمعهد المناهج.